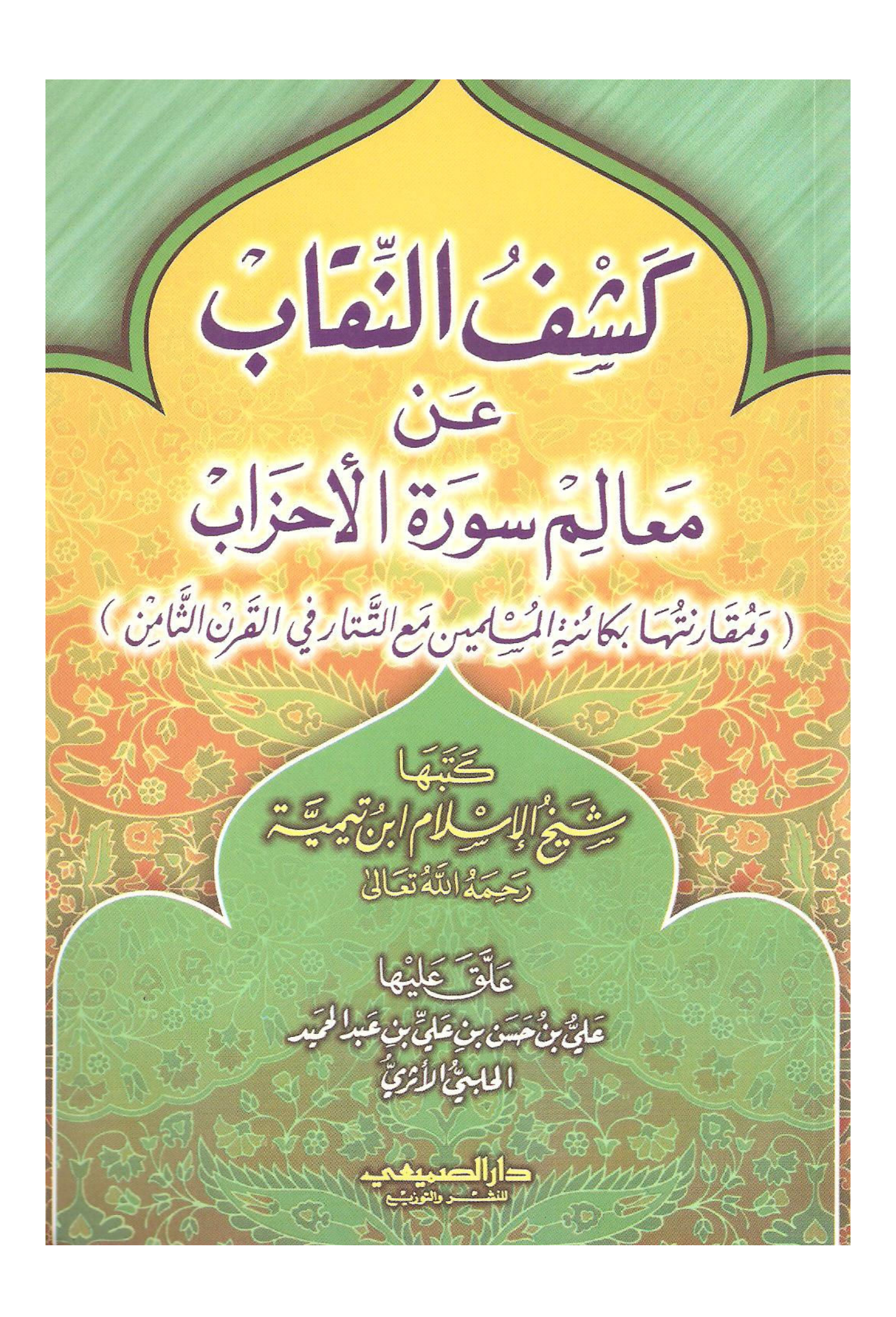


كشف النقاب
عن
معالم سورة الأحزاب
(ومقارنتها بكائنة المسلمين مع التتار في القرن الثامن)
كتبها
شيخ الإسلام ابن تيمية
رحمه الله تعالى
علق عليها
علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد
الحلبي الأثري
دار الصميعي
للنشر والتوزيع

كشف النقاب
عن
معالم سورة الأحزاب

(ومقارنتها بكائنة المسلمين مع التتار في القرن الثامن)

كتبها

شيخ الإسلام ابن تيمية

رحمه الله تعالى

علّق عليها

علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد

الحلبي الأثري

دار الصميعي للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

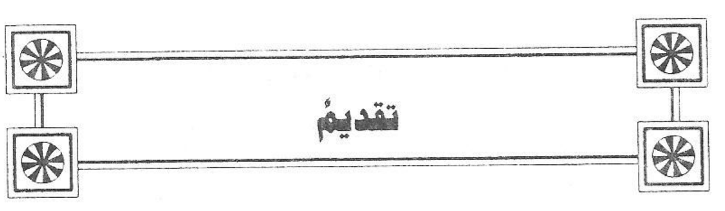
دار الصميعي للنشر والتوزيع

هاتف: ٤٢٦٢٩٤٥ - ٤٢٥١٤٥٩ - فاكس: ٤٢٤٥٣٤١

الرياض - السويدي - شارع السويدي العام

ص. ب: ٤٩٦٧ - الرمز البريدي: ١١٤١٢

المملكة العربية السعودية



إنَّ الحمدَ للّه نحمَدُه ونَستَعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ مِن شرورِ أنفُسنا، ومِن سيِّئاتِ أعمالنا، مَن يَهدِه اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضلِل فَلا هاديَ لهُ .

وأشهَدُ أن لا إلهَ إلّا اللَّهُ وَحدَهُ لا شريكَ لهُ .

وأشهَدُ أنَّ محمَّداً عَبدُهُ ورَسولُه . .

أمّا بعد :

فإنَّ أئمَّةَ العلمِ على مرِّ العُصورِ هم مصابيحُ الظُّلَم، ومناراتُ الهدايةِ، وصُوىٰ الطُّرقِ والدُّروبِ؛ فبهم يَهتَدي التّائهون، وبضيائهِم يَقتَدي السّائرون، وبكلامهم يتأسّى المُتَّبِعون .

وهُم - رحمَ اللَّهُ أمواتَهم، وحَفِظَ اللَّهُ أحياءَهُم - دائمو التَّفكُّر بأحوالِ الأُمَّةِ وواقِعها، وما يُصلِحُ شأنَها، ويُخرِجُها من ذلِّها، ويُسدِّدُ دَربَها، ويُرَشِّدُ طريقَها؛ مُستَضيئينَ في ذلك كلِّهِ بأنوارِ الوَحيَينِ العَظيمَين؛ كتابِ اللَّه سبحانَه، وسُنَّةِ رسولهِ ﷺ، بعيداً عن فلسفَةِ الكلام (!) وَزخرفتِه !

وهذه الرِّسالةُ البَديعَةُ الماتِعَةُ التي نُقَدِّمُها للإخوَةِ القرّاء – وفَّقهُم اللّه لَمراضيهِ – بُرهانٌ عَمَليٌّ على ما نقولهُ ونُكرِّرُه مِن لزوم رَبطِ الأُمَّةِ : أحداثها، وواقعها، وكائناتها بالكتابِ والسُّنَّةِ لا غَيرَ[1].

هي رسالةٌ كَتَبها شيخُ الإسلام، وعَلَمُ الأعلام، الإمامُ الرَّبّانيُّ، **ابنُ تيميَّةَ** النُّمَيريُّ الحرّانيُّ[2] ؛ عَقِبَ رَحيلِ التَّتار عن بلادِ المسلمين مَهزومين مخذولين مَدحورين، وإن تخَلَّلَ ذلك فَلَتاتٌ من بَعضِ المُنتَسبينَ للإسلامِ مِن المُنافقين، والذين في قلوبهم مَرَضٌ، ممّا جَعَلَ شيخَ الإسلامِ – رحمهُ اللّه – يعقدُ مقارنَةً واقعيَّةً بينَ أحوالِ المسلمين في تلك الكائنةِ العظيمةِ، مَعَ أحوالِ المسلمين في العَصر النَّبوي عَبرَ غَزوةِ الخندَق، ومِن خلالِ تَفسيرِ سورةِ الأحزابِ التي قصَّت خَبَرَ المنافقين، وفضَحَتهُم، وهَتَكَت سِترَهُم !

وهذا هو الواجبُ الأكيدُ على عُلماءِ الأُمَّةِ، ودُعاتِها، والمُتصدِّرين للتَّربيَةِ والتَّوجيه : أنْ تكونَ تربيتُهم للأُمَّةِ شيباً

(١) يُنظَرُ بيانُ شيخنا الألباني في « سؤال وجواب حولَ فقه الواقع » .

(٢) تُنظَر تَرجمتهُ – رحمه اللّه – في كتابي « تاريخ آل تيميَّة » (ق:١٣) يسَّرَ اللّهُ إتمامَهُ .

وشبّاناً على أنوارِ الوَحيَين، بعيداً عن أراجيفِ الإعلامِ الغربيِّ، وأكاذيب السّاسةِ !!

نقولُ هذا أداءً لواجبِ **النّصيحَةِ** في اللّهِ تباركَ وتعالى، ورَغبَةً في تحقيقِ معنى **الأُخوَّةِ الصّادقَةِ** في الدِّين، وليسَ تَشهيراً أو حِقداً ... أو ... أو غيرَ ذلك ممّا قَد يتوهَّمُهُ (البَعضُ)، فيَفهمُهُ على غيرِ وجهِهِ !

فواجبٌ على المسلمين – أتباعاً ومَتبوعين – أن يكونَ نَظرُهم للحقِّ بدلائلهِ، لا بقائلهِ، **وأن يكون (النَّقدُ)**[1] **سبيلاً مُوصِلاً لِتَحسُّسِ مواضعِ الخطأ والغَلَطِ لاجتنابها، والبُعد عنها، لا أن يكونَ سبباً للنُّفرَةِ والتَّفريق، عياذاً باللّه .**

وهذا يُذَكِّرني بما قصَّتهُ كُتُبُ التَّراجم[2] حولَ ما جَرى بينَ شيخِ الإسلام ابن تيميَّة رحمهُ اللّه – المصنِّف – وبينَ أبي حيّان الأندَلُسي الذي قال في شيخِ الإسلام مادحاً :

لمّا أتانا تَقيُّ الدِّينِ لاحَ لَنـــا
داعٍ إلى اللّهِ فَــرْدٌ مـا لــهُ وَزَرُ

---

(١) انظر مقدّمتي على رسالة « مالا يَسَعُ المسلم جَهلُهُ مِن ضروريّات التّفكّر » (ص:٨) للعلّامة المعلّمي – نشر دار الصُّميعي – الرّياض .

(٢) « الدُّرر الكامنة » (١٤٤/١) لابن حجر .

على مُحَيَّاهُ مِن سِيا الأُولي صَحِبوا

خَيرَ البريَّةِ بَدرٌ دونَهُ قَمَـــــرُ

... فَقَد وَقَعَ أن تباحَثَ هذان الشيخانِ في بعضِ مسائلِ اللغةِ العربيَّة، فذكرَ أبو حيَّان كلاماً لِسيبَويهِ، **فخطَّأهُ** شيخُ الإسلام رحمهُ اللّه، **فَغَضِبَ أبو حيَّان** غضباً شديداً فتكلَّم في ابن تيميَّة قائلًا: « هذا لا يستحقُّ الخِطاب » !! فقال لهُ شيخُ الإسلامِ: « **ما كانَ سيبَويه نبيَّ النَّحوِ**، ولا كانَ معصوماً .. »!

قلتُ: وهكذا مَن يُنتَقدُ أو يُخطَّأُ - اليومَ - من العُلماءِ، أو **الدُّعاةِ**، أو الخُطباءِ، ليسَ واحدٌ منهم نبيَّ العلمِ، **أو نبيَّ الدَّعوَةِ**، أو نبيَّ الخِطابَةِ !!

فما بالُ (النَّاسِ) يغضبونَ، ويشتدُّونَ، ويُعنِّفونَ، بل يُقاطِعونَ ويُشهِّرون ؟!

إنَّ عودةَ الأُمَّةَ إلى منهجِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعَةِ لا تكونُ إلاَّ ببناءِ الشخصيَّةِ الإسلاميَّة العلميَّةِ، المتحرِّزَةِ مِن شوائبِ التَّعصُّب، والنقيَّةِ مِن كَدَرِ التَّحزُّبِ، تعظيماً للكتابِ والسُّنَّةِ، وليسَ (تَقديساً) لأيٍّ مِن أفرادِ الأُمَّةِ !!

ولا بُدَّ هنا مِن الإشارةِ إلى قاعدَةٍ أساسيَّةٍ في بابِ النَّقدِ والتَّخطئةِ، وهي: **أنَّ الأصلَ في المُنتَقدِ أو المُخَطَّأ الصَّوابُ**

والخيرُ، فالتّنبيهُ يكونُ على ما فيهِ مخالفةٌ للأصلِ؛ ولا يلزمُ مِن ذلك – كما قد توهّمهُ البعضُ – إهدارُ ذلك الفضلِ والخيرِ والصّوابِ .

وقاعدَةٌ أخرى، هي أنّهُ « لو كانَ كُلُّ مَن أخطأ أو غَلِطَ تُرِكَ جُملةً، وأُهدِرَت محاسنُهُ، لَفَسَدَت العلومُ والصّناعاتُ والحِكَمُ، وتعطّلت معالمها »[1].

وما أجملَ كلامَ العالمِ الرّبّاني، والإمامِ الثّاني ابن قيّم الجوزيّة رحمهُ اللّه ردّاً على بعضِ الكبارِ **مِن أئمّةِ العلم**[2] :

« **وَلولا أنَّ الحقَّ للّهِ ورسولِهِ، وأَنَّ كُلَّ ما عَدا اللّهَ ورسولَه، فمأخوذٌ مِن قولِهِ ومتروكٌ، وهو عُرضَةُ الوَهَمِ والخطأ**: لَمَا اعتَرَضنا على مَن لا نَلحقُ غُبارَهم، ولا نَجري معهم في مِضمارِهم ... » .

قلتُ : **فكَيفَ بمن هو دونَهم بدَرَجاتٍ ممَّن لا يلحقُ غُبار ابن القيّم ؟!**

أخي طالبَ العلمِ :

هذا كلامي، وهو زُبدَةُ مَقصِدي ومَرامي، « فما وجَدتَ

---

(١) « مدارج السّالكين » (٣٩/٢) .

(٢) « مدارج السّالكين » (١٣٧/١) .

فيه مِن صوابٍ وحَقٍّ فَاقبلْهُ، ولا تَلتفِت إلى قائلهِ، بل انظر إلى ما قال، لا إلى مَن قال ! **وَقَد ذمَّ اللَّهُ تعالى مَن يَرُدُّ الحقَّ إذا جاءَ بهِ مَن يُبغِضُهُ، ويقبلُه إذا قالَهُ مَن يُحِبُّهُ، فهذا خُلُقُ الأُمَّةِ الغَضَبِيَّة** ... »[1].

أعاذنا اللَّهُ – والمسلمين – مِن كلِّ بليَّة، وبرَّأ نفوسَنا وعقولَنا مِن شرِّ العصبيَّة، ونزَّهَ قلوبنا عن جَورِ الحزبيَّة .. إنَّهُ سميعٌ مجيبٌ لدعاءِ كُلِّ البريَّة .

وآخِرُ دَعوانا أنِ الحمدُ لِلَّهِ ربِّ العالمين .

وكتبهُ

عَليُّ بنُ حَسن بنِ عَليِّ بنِ عَبدالحميدِ

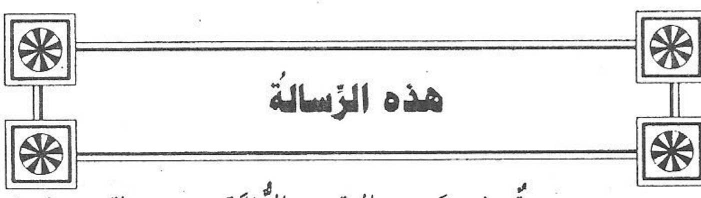
الحلبيُّ الأثريُّ

ضُحى يوم السَّبت

٢٣/صفر/١٤١٣هـ

---

(١) « مدارج السَّالكين » (٣/٥٢٢) .



هذه الرِّسالة

○ موجودةٌ ضِمنَ « العقود الدُّرِّيَّة مِن مناقب شيخِ الإسلامِ ابن تيميَّة » (ص: ١٢٠-١٧٥) للحافظ ابن عبدالهادي، وضِمنَ « مجموع فتاوى شيخ الإسلام » (٢٨/٤٢٤-٤٦٧) .

○ تَبرُزُ قيمتُها العلميَّةُ في أُمورٍ، أهمُّها :

١ - أنَّها فاتَت مَن جَمَعَ تَفسيرات شيخ الإسلام ابن تيميَّة كصاحبِ « دقائق التَّفسير » وغيرِهِ .

٢ - أنَّ فيها لطائفَ في فَنِّ التَّفسيرِ عَزيزةً، وفوائدَ تَفسيريَّةً لآياتٍ عدَّةٍ سِوىٰ ما بَنى عليها كتابَهُ؛ تَدُلُّ على عُلُوِّ كَعْبِ شيخِ الإسلام، وإمامَتِه في هذا العِلم .

٣ - أنَّها بيَّنَت شيئاً مِن فَضائلِ الجهادِ، وأثرِهِ في النُّفوسِ المُؤمِنَة، وَالنَّقضِ عَلى المُتخاذلينَ وَالمُتقاعِسين .

٤ - أنَّها رَبطٌ لواقعِ الأُمَّةِ بكتابِ اللَّهِ سبحانَهُ وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ، وتَحليلٌ لكائنةٍ تاريخيَّةٍ عَظيمةٍ .

٥ - أنَّها تضمَّنَت معلوماتٍ تاريخيَّةً عزيزةً .

○ نقل ابنُ عبدالهادي في « العقود »[1] (ص: ١٧٥) عن شيخ الإسلام قولَهُ :

« كَتَبتُ أوَّلَ هذا الكتابِ بَعدَ رَحيلِ قازان[2] وجنودِه، لمَّا رجعتُ مِن مصرَ في جُمادى الأولى، وأشاعوا أنَّهُ لَم يَبقَ منهم أحَدٌ، ثمَّ لمَّا بقيَت تلكَ الطَّائفةُ اشتَغلنا بالاهتمامِ بجهادِهم، وقَصدِ الذَّهاب إلى إخوانِنا بحماةَ، وتَحريضِ الأُمراءِ على ذلك، حتى جاءَنا الخَبَرُ بانصرافِ المُتبقِّين منهم، فكمَّلتُه[3] في رَجَبٍ، واللَّهُ أعلم » .

○○○○○

---

(١) وكذا هو في « مجموع الفتاوى » (٢٨/٤٦٧) .

(٢) انظر ما سيأتي تعليقاً (ص: ١٤) .

(٣) أي : هذا الكتابَ نفسَه .



إلى مَن يَصِلُ إليهِ مِنَ المؤمنين والمسلمين .

سلامُ اللَّهِ عليكُم ورَحمةُ اللَّهِ وبَركاته .

فإنَّا نحمَدُ إليكُم اللَّهَ الذي لا إلهَ إلاّ هو، وهو للحمدِ أهلٌ، وهو على كلِّ شيءٍ قَدير، ونسألهُ أن يُصلِّي على صَفوتهِ من خَليقَتهِ، وخيرَتهِ مِن بَريَّتهِ، محمَّدٍ عبدهِ ورسولهِ، صلَّى اللَّهُ عليهِ وعلى آلهِ وسلَّم تَسليماً .

أمَّا بعد :

فَقَد صَدَقَ اللَّهُ وعدَهُ، ونَصرَ عَبدَهُ، وأعزَّ جُندَهُ، وهَزَمَ الأحزابَ وَحدَهُ، ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذينَ كَفَروا بِغَيظِهِم لم يَنالوا خَيراً وكفى اللَّهُ المؤمنينَ القِتال وكان اللَّهُ قَويًّا عَزيزاً ﴾ [الأحزاب: ٢٥] .

واللَّهُ تعالى يُحقِّقُ لنا تمامَ الكلامِ بقوله : ﴿ وأنزَلَ الَّذينَ ظاهَروهمُ مِن أهلِ الكتابِ مِن صَياصيهم[1] وَقَذَفَ في قلوبهم الرُّعبَ فريقاً تَقتُلونَ وتأسِرونَ فَريقاً وأورثكُم أرضَهُم وديارَهُم

(١) قال ابنُ قُتَيبَة في « غريب القرآن » (ص: ٣٤٩): « مِن حصونهم ».

وأرضاً لم تَطأوها وكانَ اللَّهُ على كلِّ شيءٍ قَديراً ﴾ [الأحزاب: ٢٦] .

فإنَّ هذه الفتنةَ التي ابتُليَ بها المسلمون مع هذا العدوِّ المُفسد[1] ، الخارجِ عن شريعَةِ الإسلام، **قَد جَرى فيها شبيهُ ما جَرى للمسلمين مع عدوِّهم على عَهدِ رسولِ اللَّه ﷺ** في المغازي التي أَنزَلَ اللَّهُ فيها كتابَهُ، وابتَلى بها نبيَّهُ والمؤمنين : ما هو أُسوَةٌ لمن كانَ يَرجو اللَّهَ واليومَ الآخرَ وذكَرَ اللَّهَ كثيراً إلى يومِ القيامة .

فإنَّ نصوصَ الكتابِ والسُّنَّة، اللذين هما دعوةُ محمَّدٍ ﷺ، يتناولان عمومَ الخلقِ بالعمومِ اللفظيِّ والمعنويِّ، أو بالعموم المعنويِّ .

---

(١) وهم التَّتارُ، كما في « العقود الدُّرِّيَّة » (ص: ١١٩) للإمام ابن عبدالهادي .

ونقلَ في (ص: ١٧٥) - كما سبَق هنا (ص: ١١) - منه بعد سياقِ هذه الرِّسالة تامَّةً عن شيخ الإسلام قوله :

« كتبتُ أوَّلَ هذا الكتاب بعدَ رحيلِ قازانَ وجنودِهِ ... » .

قلتُ : وقازانُ، هو مَلِكُ التَّتار، كما في « البداية والنِّهاية » (١٣/٣٤٠) و (١٤/٢٩) لابن كثير .

وسيأتي (ص: ٤٧) الإشارة إليهِ من كلام المصنِّف .

وعهودُ اللَّه في كتابهِ وسنَّةِ رسولهِ تنالُ آخِرَ هذه الأمَّة، كما نالت أوَّلَها، **وإنَّما قصَّ اللَّه علينا قَصَصَ مَن قبلنا منَ الأُمم، لتكون عِبرَةً لنا،** فنُشبِّه حالَنا بحالهم، ونَقيسَ أواخرَ الأمم بأوَّلها، فيكون للمؤمن منَ المتأخِّرينَ شبَهٌ بما كانَ للمؤمنِ منَ المتقدِّمين، ويكونَ للكافرِ والمنافقِ منَ المتأخِّرين شبَهٌ بما كانَ للكافرِ والمنافقِ منَ المتقدِّمين، كما قال تعالى لمَّا قَصَّ قصَّةَ يوسُف مُفصَّلةً، وأجمَلَ ذكرَ قصَصِ الأنبياء، ثمَّ قال: ﴿ لَقَد كانَ في قَصَصِهِم عِبرَةٌ لأُولي الألباب ما كانَ حديثاً يُفترى ﴾ [يوسف:١١١]، أي: هذه القصصُ المذكورةُ في الكتاب ليست بمنزلةِ ما يُفترَى منَ القصصِ المكذوبةِ، كنحوِ ما يُذكرُ في الحروبِ، وفي السِّيَر المكذوبة.

وقال تعالى – لمَّا ذكرَ قصَّةَ فرعَون –: ﴿ فأخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الآخِرَةِ والأُولى إنَّ في ذلك لعِبرَةً لمَن يَخشى ﴾ [النازعات: ٢٥-٢٦].

وقال في سيرةِ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ مع أعدائهِ ببَدرٍ وغيرها: ﴿ قَد كانَ لكُم آيَةٌ في فئتَين التَقَتا فِئةٌ تُقاتلُ في سبيلِ اللَّهِ وأُخرى كافِرَةٌ يَرَونَهُم مِثلَيهم رأيَ العَين واللَّهُ يُؤيِّدُ بنَصرهِ مَن يشاءُ إنَّ في ذلك لعبرَةً لأُولي الأبصار ﴾ [آل عمران: ١٣].

وقال تعالى في مُحاصرتِهِ لبني النَّضير : ﴿ هوَ الَّذي أخرَجَ الَّذينَ كَفَروا مِن أهلِ الكتابِ مِن ديارهم لأوَّلِ الحَشرِ ما ظَنَنتُم أن يَخرُجوا وظَنُّوا أنَّهم مانِعتُهُم حصونهُم منَ اللَّهِ فأتاهُمُ اللَّهُ مِن حيثُ لَم يَحتَسبوا وَقَذَفَ في قلوبهم الرُّعبَ يُخْرِبونَ بيوتَهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، فاعتَبروا يا أُولي الأبصار ﴾ [الحشر: ٢] .

فأمَرنا أن نعتبِرَ بأحوالِ المتقدِّمين علينا من هذه الأُمَّة، وممَّن قبلها منَ الأُمم .

وذكرَ في غيرِ موضع : أنَّ سنَّتهُ في ذلكَ سنَّةٌ مُطَّردةٌ، وعادتهُ مستمرَّةٌ؛ فقال تعالى : ﴿ لَئِن لَم يَنتَهِ المنافقونَ والَّذين في قلوبهم مَرَضٌ والمُرْجِفونَ في المدينة لَنُغْرِيَنَّكَ بهم ثمَّ لا يُجاوِرونكَ فيها إلاّ قليلاً مَلعونينَ أينما ثُقِفوا أُخِذوا وقُتِّلوا تَقتيلاً سُنَّةَ اللَّهِ في الَّذينَ خَلَوا مِن قبلُ ولَن تَجِدَ لسُنَّة اللَّهِ تبديلاً ﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَو قاتَلَكُم الَّذين كَفَروا لَوَلَّوا الأدبارَ ثمَّ لا يجدونَ وليّاً ولا نَصيراً سنَّةَ اللَّهِ التي قَد خَلَت مِن قبلُ ولَن تجدَ لسُنَّةِ اللَّهِ تَبديلاً ﴾ [الفتح: ٢٢-٢٣] .

وأخبَرَ سبحانهُ أنَّ دأبَ الكافرين مِنَ المستأخرينَ كدأبِ

الكافرين منَ المستَقدمين[1] .

فينبغي للعقلاءِ أن يعتبِروا بسنَّة اللَّهِ وأيَّامِهِ في عبادِهِ، ودأبِ الأممِ وعاداتهم[2] ، لا سيَّما في مثلِ هذه الحادثة العظيمةِ التي طبَّقَ الخافقَيْن خبرُها ، واستَطارَ في جميعِ ديارِ الإسلام شررُها، وأطلعَ فيها النِّفاقُ ناصيَةَ رأسهِ، وكشرَ فيها الكُفرُ عَن أنيابهِ وأضراسهِ، وكادَ فيه عمودُ الكتابِ أن يُجتَثَّ ويُخترَم، وجبلُ الإيمانِ أن ينقطعَ ويُصطَلَمَ[3] ، وعُقرُ دارِ المؤمنين أن يحلَّ بها البوار، وأن يزولَ هذا الدِّينُ باستيلاء الفجرَة التَّتار، وظنَّ المنافقون والَّذين في قلبوهم مَرضٌ أنَّ ما وَعَدهم اللَّهُ ورسولهُ إلاَّ غروراً، وأنْ لن يَنقلبَ حزبُ اللَّهِ ورسولهِ إلى أهليهم أبداً، وزُيِّنَ ذلك في قلوبهم وظنُّوا ظنَّ السُّوء وكانوا قَوماً بوراً[4] ، ونزلت فتنةٌ تركت الحليمَ فيها حَيران، وأنزلَت الرجُلَ الصَّاحي

(١) كمثلِ قوله سبحانه : ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرعَونَ والَّذينَ مِن قَبلِهِم ﴾ [آل عمران:١١] .

(٢) لا أنْ تمُرَّ عليهم الأخبارُ، والقَصَصُ، (والأحداثُ) دونَ عبرةٍ وعِظَةٍ، ومِن غير تأمُّلٍ وتفكُّرٍ ! فيَقَعوا فيما وَقَعَ فيه (السَّابقون)، ويَغرَقوا فيما غَرِقَ بهِ (الماضون) ! !

(٣) الاصطِلام : الاستِئصالُ .

(٤) اقتباسٌ من سورة الفتح، آية : ٤٨ .

مَنزلَةَ السَّكران، وتركَت الرجُلَ اللبيبَ لكثرةِ الوسواس ليسَ بالنَّائم ولا اليَقظان، **وتناكرَت فيها قلوبُ المعارف والإخوان**[1]، حتى بقيَ للرجلِ بنفسهِ شغلٌ عن أن يُغيثَ اللهفان، وميَّزَ اللَّهُ فيها أهلَ البصائرِ والإيقان، منَ الذين في قلوبهم مَرَضٌ أو نفاقٌ أو ضَعفُ إيمان، ورفعَ بها أقواماً إلى الدَّرجات العالية، كما خَفَضَ بها أقواماً إلى المنازلِ الهاويةِ، وكفَّرَ بها عن آخَرين أعمالَهم الخاطئة[2]، وحدَثَ مِن أنواع البَلوى ما جعَلها قيامةً مختَصرةً من القيامة الكبرى .

فإنَّ النَّاسَ تفرَّقوا فيها ما بينَ شقيٍّ وَسعيد، كما يتفرَّقونَ كذلك في اليومِ الموعود، وفرَّ الرجلُ فيها من أخيهِ وأمِّه وأبيه، إذ كانَ لكلِّ امرىءٍ منهم شأنٌ يُغنيه، وكان منَ النَّاسِ مَن أقصى هَمِّهِ[3] النَّجاةَ بنفسهِ، لا يَلوي على مالهِ ولا وَلدهِ، ولا عَروسهِ، كما أنَّ منهم مَن فيهِ قوَّةٌ على تخليصِ الأهلِ والمال، وآخَرُ فيه زيادةُ معونةٍ لمن هو منهُ ببال، وآخَرُ منزلتهُ منزلة الشفيع المطاع، وهم درجاتٌ عندَ اللَّه في المنفعةِ والدِّفاع، ولم

(١) ما أشبهَ الليلةَ بالبارحةِ !!

(٢) الآثمة .

(٣) في « الأصل » : « همّته » !

يَنْفَع المنفعةَ الخالصةَ منَ الشكوى إلاّ الإيمانُ والعملُ الصَّالحُ، والبرُّ والتَّقوى، وبُليَت فيها السَّرائر، وظهرَت الخبايا التي كانت تكتُمها الضَّمائر، **وتبيَّنَ أنَّ البهرج منَ الأقوالِ والأعمالِ يخون صاحبَهُ أحوجَ ما كان إليهِ في المآل**[1]، وذمَّ سادتَهُ وكبراءَهُ مَن أطاعهم فأضلُّوه السَّبيلا، كما حَمَدَ ربَّهُ مَن صَدَقَ في إيمانهِ فاتَّخذَ معَ الرَّسولِ سبيلا، وبانَ صدقُ ما جاءَت به الآثارُ النَّبويَّة، مِنَ الإخبارِ بما يكون، وواطَأَتها قلوبُ الذين هم في هذه الأُمَّة مُحَدَّثون[2]، كما تواطأت المُبَشِّرات التي أُريها المؤمنون، وتبيَّنَ فيها **الطَّائفةُ المنصورَةُ الظَّاهرةُ على الدِّين، الذين لا يضرُّهم مَن خالفهم ولا مَن خذلهم إلى يومِ القيامة**[3].

حيثُ تحزَّبَ النَّاسُ إلى ثلاثَةِ أحزابٍ :

حزبٌ مجتهدٌ في نَصرِ الدِّين .

وآخَرُ خاذلٌ لهُ .

---

(1) فلا يغترَّنَّ أحدٌ بزينةِ لفظٍ، أو بهرجةِ قولٍ، يُصرَفُ بها عن الحقِّ الصَّريح، بضيائهِ، وغَنَائه .

(2) مِن أصحابِ الفراسةِ الصَّادقةِ، وانظر « المدارج » (٢/٤٨٩) .

(3) يُشيرُ – رحمه الله – إلى قوله ﷺ : « لا تزالُ طائفةٌ مِن أمَّتي قائمةً بأمرِ اللَّهِ، لا يضرُّهُم مَن خَذَلَهُم، ولا مَن خالفهُم، حتى يأتيَ أمرُ اللَّهِ، وهم ظاهرونَ على النَّاسِ »، رواه البخاري (٣٤٦١)، ومسلم (١٠٣٧) عن مُعاوية .

وآخرُ خارجٌ عن شريعةِ الإسلام .

وانقَسَمَ النَّاسُ ما بينَ مأجورٍ ومعذور، وآخَرُ قَد غرَّهُ باللَّهِ الغَرور .

وكانَ هذا الامتحانُ تمييزاً منَ اللَّهِ وتَقسيماً؛ ﴿ لِيَجزيَ الصَّادقين بِصِدقِهم وَيُعذِّبَ المُنافقينَ إن شاءَ أو يتوبَ عَلَيهِم إنَّ اللَّه كانَ غفوراً رحيماً ﴾[1].

ووجهُ الاعتبار في هذه الحادثةِ العظيمة : أنَّ اللَّهَ بعثَ محمَّداً ﷺ بالهُدى ودينِ الحقِّ ليُظهِرَهُ على الدِّين كلِّه، **وشرعَ له الجهادَ إباحةً له أوَّلاً، ثمَّ إيجاباً لهُ ثانياً**، لمَّا هاجرَ إلى المدينة، وصارَ له فيها أنصارٌ ينصرونَ اللَّه ورسوله، فغزا بنَفسهِ ﷺ مدَّةَ مُقامِهِ بدارِ الهجرةِ - وهو نحوُ عشرِ سنين - بضعاً وعشرين غَزوةً، أوَّلُها بَدرٌ وآخرُها تَبوكُ، أنزلَ اللَّهُ في أوَّلِ مغازيهِ سورَةَ الأنفال؛ وفي آخرها سورَةَ براءةٍ، وجمعَ بينهما في المصحف، لتشابه أوَّلِ الأمرِ وآخرِهِ، كما قال أميرُ المؤمنين عثمان -لمَّا سُئلَ عَن القِرانِ بين السُّورتين من غيرِ فَصلٍ بالبَسملةِ[2].

---

(١) الأحزاب: ٢٤ .

(٢) أخرجه أحمد (١/٥٧ و ٦٩)، وأبو داود (٧٨٦)، والترمذي (٣٠٨٦)، والنسائي في «الكبرى» (٣٢ - فضائل القرآن)، والبيهقي (٢/٤٢)=

وكان القتالُ منها في تسع غزواتٍ .

فأوَّلُ غزواتِ القتالِ : بَدرٌ، وآخرها : حُنَين والطَّائف، وأنزلَ اللَّهُ فيها ملائكتَهُ كما أخبرَ به القرآن[1] ، ولهذا صارَ النَّاسُ يجمعونَ بينهما في القول، وإن تباعَدَ ما بينَ الغَزوتين مكاناً وزماناً .

فإنَّ بَدراً كانت في رمضان، وفي السَّنة الثَّانية منَ الهجرة، ما بين المدينة، ومكَّة، شاميَّ مكَّة، وغزوةُ حُنين في آخرِ شوَّالٍ من السَّنةِ الثَّامنة، وحُنين وادٍ قريبٌ من الطَّائف، شرقيَّ مكَّةَ .

ثمَّ قسَّمَ النَّبيُّ ﷺ غنائمها بالجِعِرَّانة، واعتمَرَ عمرةَ الجِعِرَّانة[2] .

ثمَّ حاصرَ الطَّائفَ فلَم يقاتلهُ أهلُ الطَّائف زَحفاً وصفوفاً،

= وسندهُ ضعيفٌ؛ فيه يزيدُ الفارسيُّ، وهو مجهولٌ .

وانظر لزاماً « شرح المسند » (٣٩٩) للعلاَّمة أحمَد شاكر رحمه اللَّه .

(١) ﴿ ويَومَ حُنَينٍ إذ أعجَبَتكُم كَثرَتُكُم فَلَم تُغنِ عَنكُم شيئاً وضاقَت عَلَيكُم الأرضُ بِما رَحُبَت ثمَّ ولَّيتُم مُدبرينَ ثمَّ أنزَلَ اللَّهُ سَكينَتَهُ على رسولهِ وعلى المؤمنينَ وأنزَلَ جنوداً لَم تَرَوها وعَذَّبَ الَّذينَ كَفَروا ذلكَ جَزاءُ الكافرين ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦] .

(٢) كما رواهُ البخاري (٤٧٨/٣)، ومسلم (١٢٥٣) .

وانظر « زاد المعاد » (٩١/٢-٩٢) للعلاَّمة ابن القيِّم .

وإنَّما قاتلوهُ من وراء جدارٍ .

فآخِرُ غزوةٍ كان فيها القتالُ زَحفاً واصطفافاً : هي غَزوةُ حُنينٍ .

وكانت غزوةُ بَدرٍ أوَّلَ غزوةٍ ظهَر فيها المسلمون على صناديدِ الكفَّار، وقتلَ اللَّهُ [أشرافَهُم][1] وأسرَ رءوسهم، مع قلَّةِ المسلمين وضعفهم؛ فإنَّهم كانوا ثلاثَ مئةٍ وبضعة عشر، ليس معهم إلاّ فَرَسان، وكان يعتقبُ[2] الاثنان والثَّلاثة على البعير الواحد، وكان عدوُّهم بِقَدْرِهم أكثرَ من ثلاثِ مرَّات، في قوَّةٍ وعُدَّةٍ وهَيئةٍ وخُيَلاءَ .

فلمَّا كانَ منَ العامِ المقبلِ غزا الكفَّارُ المدينةَ، وفيها النَّبيُّ ﷺ وأصحابهُ، فخرجَ إليهم النَّبيُّ ﷺ وأصحابهُ في نحوٍ من رُبعِ الكفَّار، وتَركوا عيالَهم بالمدينة، لم ينقلوهم إلى موضعٍ آخَر، وكانت - أوَّلاً - الكرَّةُ للمسلمين عليهم، ثمَّ صارَت للكفَّارِ، فانهَزَمَ عامَّة عَسكرِ المسلمين إلاّ نفراً قليلاً حولَ النَّبيِّ ﷺ، حتى كسَروا رَبَاعِيَتَهُ[3]، وشجُّوا جبينهُ، وهشموا

(١) ساقطةٌ مِن « العقود »، واستَدركتها مِن « مجموع الفتاوى » .

(٢) أي : تناوَبوا في ركوبهِ، فيَركبهُ هذا مرَّة، وذاكَ أخرى .. وهكذا .

(٣) رواه البخاري (٢٩٠٣)، ومسلم (١٧٩٠) عن سَهل .

البيضَةَ[1] على رأسهِ .

وأنزَلَ اللَّهُ فيها نحواً من شطرِ سورةِ آل عمران[2] مِن قوله تعالى : ﴿ وإذ غَدَوتَ مِن أهْلكَ تُبوِّىءُ المؤمنين مَقاعِدَ للقتالِ ﴾ [آل عمران:١٢١]، قال فيها : ﴿ إنَّ الَّذينَ تَوَلَّوا مِنكُم يَومَ التَقى الجمعان إنَّما استزَلَّهُم الشيطان ببَعضِ ما كَسَبوا وَلَقَد عَفا اللَّهُ عنهم إنَّ اللَّهَ غفورٌ حليمٌ ﴾ [آل عمران:١٥٥] .

وقال فيها : ﴿ وَلَقَد صَدَقَكُم اللَّهُ وَعدَهُ إذ تَحُسُّونَهُم بإذنهِ حتى إذا فَشِلتُم وتَنازَعتُم في الأمرِ وعَصَيتُم مِن بَعدِ ما أراكُم ما تُحبُّونَ مِنكُم مَن يُريدُ الدُّنيا ومِنكُم مَن يُريدُ الآخرَة ثمَّ صرَفكُم عنهم ليبتَليَكُم وَلَقد عَفا عَنكُم واللَّهُ ذو فَضلٍ على المؤمنين ﴾ [آل عمران:١٥٢] .

وقال فيها : ﴿ أوَ لَمَّا أصابَتكُم مُصيبَةٌ قَد أَصَبتُم مِثلَيها قُلتُم أنَّى هذا قل هُوَ مِن عندِ أنفُسِكم إنَّ اللّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾ [آل عمران:١٦٥] .

وكان الشيطان قَد نفَّقَ[3] في النَّاسِ أنَّ محمَّداً قَد قُتلَ،

---

(١) أي : كَسَروا ما يَلبسُه تحتَ المِغفَر في الرَّأسِ وقايَةً لهُ .

(٢) قارِن بِـ : « تَفسير ابن كثير » (٥٩٨/١) .

(٣) أي : روَّجَ وأشاعَ .

فمنهم مَن تَزَلزَلَ لذلك؛ فهرَب، ومنهم مَن ثَبتَ؛ فقاتَلَ، فقال اللّه تعالى: ﴿ وَما مُحَمَّدٌ إلاّ رَسولٌ قد خَلَت مِن قَبلِهِ الرُّسُلُ أفإن ماتَ أو قُتِلَ انقَلَبتُم على أعقابِكُم ومَن يَنقَلِب على عَقِبَيه فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شيئاً وسَيَجزي اللَّهُ الشاكرين ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وكان هذا مثلَ حالِ المسلمين لمَّا انكَسَروا في العامِ الماضي[١]، وكانت هزيمةُ المسلمين في العام الماضي بذنوبٍ ظاهرةٍ، وخطايا واضحةٍ: من فسادِ النيّات، والفخرِ والخُيَلاء، والظُّلم، والفواحش، والإعراض عن حكمِ الكتابِ والسُّنَّة[٢]، وعن المحافظةِ على فرائضِ اللّه، والبَغي على كثيرٍ من المسلمين الذين بأرضِ الجزيرةِ والرُّوم.

وكان عدوُّهم[٣] في أوَّلِ الأمرِ راضياً منهم بالموادعةِ والمسالمةِ، شارعاً في الدُّخولِ في الإسلام، وكان مبتدئاً في الإيمان والأمان، وكانوا هم قَد أعرَضوا عن كثيرٍ من أحكامِ الإيمان؛

(١) أي: في عَهدِ المؤلِّف رحمه اللّه في القَرن الثّامن.

(٢) فكيفَ اليومَ! وقَد أُقصِيَ كتابُ اللّه، وأُعرِضَ عن سُنَّةِ رسولِ اللّه ﷺ، وسادَ الظلمُ، واستُضعِفَ المسلمون، وفَسَدَت الأحوالُ، واشتدَّ البَغيُ، ولا مُغيِّرَ إلاّ اللّهُ!!

(٣) أي: التّتار.

فكانَ من حكمةِ اللَّهِ ورحمتهِ بالمؤمنين أنِ ابتلاهم بما ابتلاهم به ليُمَحِّصَ اللَّهُ الذين آمَنوا، ويُنيبوا إلى ربِّهم، وليَظهَرَ من عَدوِّهم ما ظَهَرَ منهُ منَ البَغي والمكرِ، والنَّكثِ، والخُروجِ عن شرائعِ الإسلام، فيقومَ بهم[1] ما يَستَوجبونَ به النَّصر، وبعدوِّهم ما يَستَوجبُ بهِ الانتقامَ .

فقد كانَ في نفوسِ كثيرٍ من مُقاتِلةِ المسلمين ورعيَّتهم منَ الشرِّ الكبيرِ ما لَو يقترنُ به ظَفَرٌ بعدوِّهم - الذي هو على الحالِ المذكورة - لأوجَبَ لهم ذلك مِن فسادِ الدِّين والدُّنيا ما لا يوصَف[2] .

كما أنَّ نَصرَ اللَّهِ المسلمين يومَ بَدرٍ كان رحمَةً ونعمَةً، وهزيمتَهم يومَ أُحدٍ كانَ نعمَةً ورحمَةً على المؤمنين .

فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « لا يَقضي اللَّهُ للمؤمن قضاءً إلاّ

---

(١) في ظاهرهم وباطنهم، وفي قلوبهم وعقولهم، وفيما بينَ أنفسهم؛ إيماناً ويقيناً، والتزاماً حقيقيّاً بالإسلام وأحكامهِ وشرائعهِ .

(٢) وهذه فائدةٌ (واقعيَّةٌ) بديعةٌ؛ إذ النَّصرُ والظَّفَرُ لا يَهَبُهُ اللَّهُ سبحانهُ إلاّ لمَن يَستحقُّه مِن أهلِ طاعتهِ، وأصحابِ برِّهِ، والعاملين بشريعتهِ !

أمّا أن يغترَّ المسلمون بشعاراتٍ (سياسيَّةٍ) تُرفَعُ، ليسَ المرادُ منها، إلاّ (الحشد) العاطفي والحماسي لغَوغاء المسلمين ورعاعهم ... فهذا ما ليسَ معه - بحالٍ - نَصرٌ أو ظَفَرٌ ... واللَّهُ الهادي .

كانَ خَيراً له، وليسَ ذلك لأحدٍ إلاّ للمؤمن، إن أصابتهُ سرَّاءُ فَشكرَ اللّه كانَ خَيراً له، وإن أصابتهُ ضرَّاءُ فَصبَرَ كان خيراً له »[1].

○○○○○

---

(1) رواه مسلم (٢٩٩٩) بِنَحوِهِ عن صُهَيب .



[معنى المؤمن والمنافق :]

فلمّا كانت حادثةُ المسلمين عامَ أوّلٍ[1] شبيهةً بأحدٍ، وكانَ بَعدَ أحدٍ بأكثرَ من سنَةٍ – وقيل : بسنتين – قَد ابتُليَ المسلمون بغزوة الخندق .

كذلك في هذا العام ابتُليَ المؤمنون بعدوِّهم، كنحوِ ما ابتُليَ المسلمون مع النّبيِّ ﷺ عامَ الخَندق، وهي **غزوةُ الأحزاب التي أنزَلَ اللّهُ فيها سورَةَ الأحزاب، وهي سورةٌ تضمَّنت ذكرَ هذه الغَزاةَ، التي نصرَ اللّهُ فيها عبدَهُ ﷺ، وأعزَّ فيها جندَهُ المؤمنين، وهَزَمَ الأحزابَ الذين تحزَّبوا عليهِ وَحدَهُ، بغيرِ قتالٍ، بل بثبات المؤمنين بإزاءِ عدوِّهم .**

ذكرَ فيها[2] خصائصَ رسولِ اللّه ﷺ، وحقوقَه، وحُرمتَهُ، وحرمةَ أهل بيتِه، لما كان هو القلبَ الذي نَصرَهُ اللّهُ

---

(١) أي : كائنةُ التّتار الأولى، قبلَ عامٍ من هذه الثّانيةِ .

(٢) أي : سورة الأحزاب .

فيها بغير قتالٍ، كما كانَ ذلك في غزوتنا هذه، سواءً، **وظَهَرَ فيها سرُّ تأييدِ الدِّين**[1]، كما ظَهَرَ في غَزوةِ الخَندَق، وانقسمَ النَّاسُ فيها كانقسامِهم عامَ الخندَق .

وذلك أنَّ اللَّه تعالى منذُ بعثَ محمَّداً ﷺ وأعزَّهُ بالهجرَةِ والنُّصرةِ صارَ النَّاسُ ثلاثةَ أقسام :

أ – قسماً مؤمنين، وهم الذين آمَنوا به ظاهراً وباطناً .

ب – وقسماً كفَّاراً، وهم الذين أظهَروا الكفرَ به .

ج – وقسماً منافقين، وهم الذين آمَنوا ظاهراً، لا باطناً .

ولهذا افتتحَ سورة البقرة بأربع آياتٍ في صفَةِ المؤمنين، وآيتين في صفَةِ الكافرين، وثلاثَ عشرَةَ آيَة في صفةِ المنافقين .

وكلُّ واحدٍ من الإيمان والكفرِ والنِّفاق له دعائمُ وشعبٌ، كما دلَّت عليهِ دلائلُ الكتابِ والسُّنَّة، وكما فسَّرهُ أميرُ المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب رضيَ اللَّهُ عنه في الحديث المأثور عنهُ في الإيمان ودعائمهِ وشُعبهِ[2] .

---

(١) **وهو نصرةُ اللَّهِ جَلَّ وعَلا، والعَمَلُ بأحكام دينِهِ .**

(٢) رواه اللالَكائيُّ في « السنة » (رقم: ١٥٧) مطوَّلاً .

وذكرهُ الذَّهبيُّ في « الميزان » (١٩٩/٢) وضعَّفهُ بسُليمان بن الحكم .

وله طريقٌ آخرُ مُختَصَرٌ :

رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٣٨) بسندٍ فيه سفيان بن وكيع، =

فَمِنَ النِّفاقِ ما هو أكبَرُ؛ يكونُ صاحبهُ في الدَّرْكِ الأسفَلِ مِنَ النَّار، كنفاق عبدالله بن أُبيٍّ[1] وغيره؛ بأن يُظهِرَ تَكذيبَ الرَّسول، أو جُحودَ بعض ما جاءَ بهِ، أو بُغضه، أو عَدمَ وجوبِ اتِّباعهِ، أو المسرَّةَ بانخفاضِ دينهِ، أو المساءَةَ بظهورِ دينه، ونحوَ ذلكَ : **ممَّا لا يكونُ صاحبهُ إلاّ عدوّاً للّهِ ورسولِه .**

وهذا القَدْرُ كانَ موجوداً في زَمنِ رسولِ اللّه ﷺ، وما زالَ بَعدَهُ، بل هو بَعدَهُ أكثرُ منهُ على عَهدهِ، لكَونِ موجباتِ الإيمانِ على عَهدهِ أقوى، فإذا كانَت مع قوَّتها كانَ النِّفاقُ مَوجوداً، فوجودهُ فيما دونَ ذلك أولى .

وكما أنَّهُ ﷺ كان يعلمُ بعضَ المنافقين، ولا يعلمُ بعضهم، كما بيَّنهُ قوله : ﴿ ومِمَّن حَولَكُم مِنَ الأعرابِ مُنافِقونَ وَمِن أهلِ المَدينةِ مَرَدُوا على النِّفاقِ لا تَعلمُهُم نَحنُ نَعلمُهُم ﴾ [التوبة: ١٠١]، كذلك خُلفاؤه بعدَهُ، وَورَثتُهُ، قد يعلمونَ بعضَ المنافقين ولا يعلمون بعضهم .

= وهو ضعيفُ الحديث .

وانظر « تهذيب التَّهذيب » (٨/١٨٧-١٨٨) .

(١) هو رأسُ المنافقين؛ انظر أخبارهُ في « البداية والنهاية » (٤/٤، ١٣، ٥١، ٧٥، ١٥٧، ١٦١) و (٥/٧، ٣٤) .

وفي المنتسبين إلى الإسلام من عامَّةِ الطَّوائف منافقون كثيرون، في الخاصَّةِ والعامَّة، ويُسمَّونَ الزَّنادقَة .

وَقَد اختَلَفَ العلماءُ في قَبولِ توبتهم في الظَّاهر، لكَونِ ذلك لا يُعلَمُ، إذ همُ دائماً يُظهرونَ الإسلامَ .

وهؤلاء يَكْثُرونَ في المتفلسِفَة، منَ المنجِّمين، ونحوهم، ثمَّ في الأطبَّاء[1]، ثمَّ في الكُتَّاب[2] أقلُّ من ذلك .

ويُوجَدون في المتصوِّفَة والمتفقِّهَة، وفي المقاتلةِ والأُمراء، وفي العامَّة أيضاً[3].

ولكنْ يُوجدون كثيراً في نِحَلِ أهلِ البِدَع، **لا سيَّما الرَّافضَة**[4]، ففيهم منَ الزَّنادقَة والمنافقين ما ليسَ في أحدٍ من أهلِ النِّحَل، ولهذا كانت الخُرَّمِيَّة[5]، والباطنيَّة، والقَرامِطَة،

---

(١) أي : المشتغلين بعلومِ الأوائل كالكهانةِ ونحوها .

(٢) الذين يبيعون دينَهم بسطورٍ يُسَوِّدونَها بالباطلِ ضدَّ المسلمين، كأذنابِ السَّاسةِ، وأصحابِ (الجرائد) مِن أهل المكر والدَّهاء !

(٣) نعوذُ باللّهِ من الخِذلانِ .

(٤) وهم الشيعةُ الشنيعَةُ – قبَّحهُم اللّه – .

(٥) هم المنسوبونَ إلى بابكَ الخُرَّمي، ويقالُ لهم أيضاً :(الخُرَّمدينيَّة)، وهم « طائفةٌ من الباطنيَّة، يَدينونَ بما يريدون ويشتهون، وإنَّما لقِّبوا بذلك لإباحتهم المحرَّمات » كما قال السَّمعاني في « الأنساب » (٥/٩٦) . =

والإسماعيليَّة، والنُّصيريَّة، ونحوهم منَ **المنافقين الزَّنادقة منتسبةً** إلى الرَّافضَة .

وهؤلاء المنافقون في هذه الأوقات لِكثيرٍ منهم مَيلٌ إلى دولةِ هؤلاء التَّتار، لكونهم لا يُلزمونهم شريعَة الإسلام، بل يتركونهم وما هم عليه .

وبعضُهم إنَّما ينفُرون عن التَّتار لفسادِ سيرتهم في الدُّنيا، واستيلائهم على الأموالِ، واجترائهم على الدِّماء، والسَّبي، **لا لأجلِ الدِّين**[1] .

فهذا ضَربُ النِّفاق الأكبَر .

وأمَّا النِّفاق الأصغَر :

فهو النِّفاق في الأعمالِ ونحوها، مثل أن يَكذبَ إذا حدَّثَ، ويُخلِفَ إذا وَعَد، ويخونَ إذا ائتُمِنَ، أو يَفجُرَ إذا خاصَم، ففي « الصَّحيحين »[2] عن النَّبيِّ ﷺ قال : « آيَةُ المُنافق ثلاثٌ : إذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أخلَفَ، وإذا

= وانظر « مقالات الإسلاميِّين » (ص:٤٣٨) لأبي حسَن الأشعري .

(١) فالواجبُ على المسلم أن يقيمَ علائقه الدُّنيويَّة على الدِّين، ولأجل الدِّين، لا لمجرَّد ناحيةٍ دنيويَّةٍ لم تُعجبهُ !

(٢) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) عن أبي هُريرَة .

ائتُمِنَ خان » .

وفي رواية صحيحة[1] : « ... وإن صلَّى، وصامَ، وزعَمَ أنَّهُ مسلم » .

وفي « الصَّحيحين »[2] عن عبدالله بن عَمروٍ عن النَّبيِّ ﷺ قال : « أربعٌ مَن كُنَّ فيهِ كانَ مُنافقاً خالصاً، وَمن كانت فيهِ خَصلةٌ منهنَّ كانت فيهِ خصلةٌ منَ النِّفاق، حتى يَدَعها : إذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أخلَفَ، وإذا عاهَدَ غَدَرَ، وإذا خاصَمَ فَجَرَ » .

ومن هذا الباب : **الإعراض عن الجهاد**؛ فإنَّهُ مِن خصالِ المنافقين؛ قال النَّبيُّ ﷺ : « مَن ماتَ ولَم يَغزُ ولَم يُحَدِّث نَفسَهُ بالغَزوِ ماتَ على شعبَةٍ من نفاق» رواه مسلم[3] .

وقَد أنزَلَ الله سورةَ **بَراءَة**، التي تُسمَّى **الفاضحة، لأنَّها فضحَت المنافقين**، أخرجاهُ في « الصَّحيحين »[4] عن ابن عبَّاس، قال : « **هي الفاضحةُ**، ما زالت تنزلُ ﴿ ومنهم ﴾،

---

(١) وهي تابعةٌ للحديثِ السَّابقِ نَفسِه .

(٢) رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) عن أبي هُرَيرَة .

(٣) (برقم: ١٩١٠) .

(٤) رواه البخاري (٨/٤٨٣)، ومسلم (٣٠٣١) .

﴿ومنهم ﴾[1] حتى ظنُّوا أن لا يَبقى أحدٌ إلاّ ذُكِرَ فيها » .

وعن المِقداد بن الأسود قال : « **هي سورةُ البُحوثِ**، لأنّها بحثَت عن سرائرِ المنافقين » .

وعَن قَتادَة قال : « **هي المُثيرَةُ**، لأنّها أثارَت مَخازي المنافقين » .

وعن ابن عبّاس قال : « **هي المُبَعثِرَة** » .

والبعثَرَةُ والإثارَةُ متقاربان .

وعن ابنِ عُمَر : « **إنّها المُقَشقِشةُ** »[2] لأنّها تبرىءُ مِن مَرضِ النِّفاق، يقال : تَقشقَشَ[3] المريضُ إذا برأ .

وقال الأصمعيُّ : وكانَ يقال لسورَتَي الإخلاص[4] : المُقَشقِشتان[5]، لأنّهما يبرئان منَ النِّفاق .

---

(١) أي : كقوله سبحانه فيها : ﴿ وَمِنهُم مَن عاهَدَ اللّهَ ... ﴾، وقوله : ﴿ وَمِنهُم مَن يَلمِزُكَ في الصَّدقات ... ﴾، وقوله : ﴿ وَمِنهُم الَّذينَ يُؤذونَ النَّبيَّ ... ﴾ .

(٢) انظر في هذه الأسماء – وغيرها – « الدُّرّ المنثور » (١٢١/٤) .

(٣) « القاموس المحيط » (ص:٧٧٧ – طبع الرسالة) .

(٤) وهما : ﴿ قُل هوَ اللّهُ أحَدٌ ﴾ و ﴿ قُل يا أيُّها الكافِرونَ ﴾ .

(٥) انظر « جَنى الجنَّتين في تمييزِ نَوعَي المُثنَّيين » (ص:١٠٨) للمُحبِّي .

وهذه السُّورة[1] نَزَلت في آخرِ مغازي النَّبيِّ ﷺ : غَزوةِ تَبوكَ، عامَ تسع منَ الهجرَة، وقد عزَّ الإسلامُ، وظَهَرَ، فكشفَ اللَّهُ فيها أحوالَ المنافقين، ووصفهم فيها بالجُبن، وتركِ الجهادِ، ووصفهم بالبُخلِ عن النَّفقةِ في سبيل اللَّه، والشحِّ على المال، **وهذان داءان عظيمان : الجُبنُ والبُخلُ**؛ قال النَّبيُّ ﷺ : « شرُّ ما في المرءِ شحٌّ هالعٌ، وجُبنٌ خالعٌ » حديثٌ صحيحٌ[2].

ولهذا قد يكونان مِن الكبائر الموجبةِ للنَّار، كما دلَّ عليهِ قولُه : ﴿ وَلا يَحسَبنَّ الَّذينَ يَبخَلونَ بما آتاهمُ اللَّهُ مِن فَضلهِ هُوَ خَيراً لهُم بَل هُوَ شرٌّ لهُم سَيُطَوَّقونَ ما بَخِلوا بهِ يَومَ القيامَة ﴾ [آل عمران:١٨٠]، وقال تعالى : ﴿ ومَن يُوَلِّهم يَومَئذٍ دُبُرَهُ إلاّ مُتَحرِّفاً لِقتالٍ أو مُتَحيِّزاً إلى فئةٍ فَقَد باءَ بغَضبٍ منَ اللَّهِ ومأواهُ جهنَّمُ وبئسَ المصير ﴾ [الأنفال:١٦] .

---

(١) أي : التَّوبة .

(٢) أخرجهُ أبو داود (٣٥١١)، وأحمد (٢/٣٠٢، ٣٢٠)، وابن حبّان (٣٢٥٠)، والبخاري في « التّاريخ الكبير » (٦/٨-٩) عن أبي هُرَيرَة .

وسندهُ حسَنٌ .

وجوَّدَ إسنادَهُ العراقي في « تخريج الإحياء » (٢/٢٥٣) .

وأمَّا وَصْفُهم بالجُبنِ والفَزَعِ، فقال تعالى: ﴿ وَيَحلِفونَ باللَّهِ إنَّهُم لَمِنكُم وما همُ مِنكُم ولكِنَّهُم قومٌ يَفرَقون ○ لَو يَجدونَ ملجأً أو مَغاراتٍ أو مُدَّخلاً لَوَلَّوْا إليهِ وهمُ يَجمَحُون ﴾ [براءة: ٥٦-٥٧].

فأخبَرَ سبحانهُ أنَّهم، وإن حَلَفوا أنَّهم منَ المومنين، فما هم منهم، ولكن يفزَعونَ منَ العَدوِّ، فَـ ﴿ لو يَجِدونَ ملجأً ﴾ يلجأون إليه منَ المعاقلِ والحصونِ التي يَفِرُّ إليها مَن يتركُ الجهادَ، ﴿ أو مغاراتٍ ﴾ - وهي جمعُ مغارَة؛ ومغارات، سُمِّيَت[1] بذلك لأنَّ الدَّاخلَ يغورُ فيها، أي: يستَتِرُ، كما يغورُ الماء -.

﴿ أو مُدَّخلاً ﴾، وهو الذي يُتكلَّفُ الدُّخولُ إليه، إمَّا لضيقِ بابهِ، أو لغيرِ ذلك، أي: مكاناً يدخلون إليه، ولو كان الدُّخولُ بكَلَفةٍ ومشقَّةٍ، ﴿ لَوَلَّوْا ﴾ عن الجهادِ ﴿ إليه وهم يَجمَحون ﴾ أي: يُسرعون إسراعاً لا يرُدُّهم شيءٌ، كالفَرَسِ الجَمُوحِ الذي إذا حَمَلَ لا يردّه اللجامُ.

وهذا وصفٌ منطبقٌ على أقوامٍ كثيرين في حادثتنا[2]، وفيما

(١) انظر: «تُحفَة الأريب» (ص: ٢٣٧) لأبي حيَّان.

(٢) حادثة التَّتار.

قبلها من الحوادث، **وبَعدها** .

وكذلك قالَ في سورةِ محمَّد ﷺ : ﴿ فإذا أُنزلَت سورَةٌ مُحكمَةٌ وَذُكِرَ فيها القِتالُ رأيتَ الَّذينَ في قلوبهم مَرَضٌ يَنظرونَ إليكَ نَظَرَ المغشيِّ عليهِ مِنَ المَوتِ فأولى لهم ﴾ أي : فبُعداً لهم ﴿ طاعةٌ وَقَولٌ مَعروفٌ فإذا عَزَمَ الأمرُ فَلَو صدَقوا اللَّهَ لكانَ خيراً لهم ﴾ [محمد: ٢٠-٢١] .

وقال تعالى : ﴿ إنَّما المؤمنون الَّذينَ آمَنوا باللَّهِ ورسولهِ ثمَّ لم يَرتابوا وجاهَدوا بأموالِهم وأنفُسهِم في سَبيلِ اللَّهِ أولئكَ هم الصَّادقون ﴾ [الحجرات: ١٥]، **فَحَصَرَ المؤمنين فيمن آمَنَ وجاهَدَ** .

وقال تعالى : ﴿ لا يَستأذِنُكَ الَّذينَ يُؤمنونَ باللَّهِ واليَوم الآخِرِ أن يُجاهِدوا بأموالهِم وأنفُسهِم واللَّهُ عليمٌ بالمُتَّقين، إنَّما يستأذِنُكَ الَّذين لا يؤمنونَ باللَّهِ واليومِ الآخرِ وارْتابَت قلوبُهم فهُم في رَيبهِم يَتردَّدون ﴾ [براءة: ٤٤-٤٥] .

فهذا إخبارٌ منَ اللَّهِ بأنَّ المؤمنَ لا يستأذِنُ الرَّسولَ في تركِ الجهادِ، وإنَّما يستأذنهُ الذي لا يؤمن، **فكيفَ بالتَّاركِ من غيرِ استئذانٍ** ؟!

ومَن تَدبَّرَ القرآنَ وجَدَ نظائرَ هذا مُتضافرةً على هذا

المعنى .

وقال في وصفهم بالشحِّ : ﴿ وما مَنَعهُم أن تُقبَلَ منهم نَفقاتهُم إلاّ أنّهُم كَفَروا باللّهِ ورسولِهِ ولا يأتونَ الصّلاةَ إلاّ وهُم كُسالى ولا يُنفقونَ إلاّ وهُم كارِهون ﴾ [براءة: ٥٤] .

فهذه حالُ مَن أنفقَ كارهاً، فكيفَ بمن تَركَ النَّفقَة رأساً ؟!

وقال : ﴿ ومنهُم مَن يَلمِزُكَ في الصَّدقاتِ فإن أُعطوا منها رَضُوا وإن لَم يُعطَوا منها إذا هُم يَسخَطون ﴾ [براءة: ٥٨].

وقال : ﴿ ومِنهُم مَن عاهَدَ اللّهَ لئن آتانا اللّهُ مِن فَضلِهِ لنصَّدَّقنَّ ولَنكونَنَّ مِنَ الصّالحين فلمّا آتاهُم مِن فَضلِهِ بَخِلوا به وتَولّوا وهُم مُعرِضون ﴾ [براءة: ٧٥-٧٦] .

وقال في السُّورة : ﴿ يا أيُّها الّذينَ آمَنوا إنَّ كثيراً مِنَ الأحبارِ والرُّهبانِ ليأكلونَ أموالَ النّاسِ بالباطِلِ ويَصدُّونَ عَن سبيلِ اللّه والّذينَ يَكنِزونَ الذَّهَبَ والفضّةَ ولا يُنفِقونَها في سبيل اللّه فَبشرهُم بِعذابٍ أليم يومَ يُحمى عليها في نارِ جهَنَّم فتُكوى بها جِباهُهُم وجُنوبُهُم وظُهورُهم هذا ما كنَزتُم لأنفُسِكُم فَذوقوا ما كُنتُم تَكنِزون ﴾ [براءة: ٣٥-٣٦] .

فانتَظَمَت هذه الآيةُ حالَ مَن أخَذَ المالَ بغير حقِّهِ، أو منَعهُ عن مستحقِّهِ من جميعِ النَّاس، فإنَّ الأحبارَ هُمُ العلماء، والرُّهبانَ هم العُبَّاد .

وقَد أخبَرَ أنَّ كثيراً منهم يأكلونَ أموالَ النَّاسِ بالباطلِ، ويَصُدُّونَ - أي : يُعرضونَ ويمنعونَ -؛ يُقال : صدَّ عن الحقِّ، صُدوداً، وصدَّ غيرَهُ .

وهذا يندرجُ فيهِ ما يُؤكَلُ بالباطلِ : مِن وَقفٍ، أو عطيةٍ على الدِّين، كالصَّلاةِ، والنُّذورِ التي تُنذَرُ لأهلِ الدِّين، ومنَ الأموالِ المشتركة، كأموالِ بيتِ المالِ، ونحوِ ذلك .

فهذا فيمَن يأكلُ المالَ بالباطلِ بشبهةِ دِينٍ[1] .

ثمَّ قال : ﴿ والَّذينَ يَكنِزونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنفِقونَهَا في سبيلِ اللَّه ﴾ فهذا يندرجُ فيهِ مَن كنَزَ المالَ عن النَّفقةِ الواجبةِ

(١) نسألُ اللَّهَ العافيَة مِن أولئكَ المُتأكِّلينَ بالدِّين، الذينَ لا همَّ لهم إلاّ جمعُ المال، واللُّهاثُ وراءَ الدُّنيا، بتفخيم النَّفس، وتعظيمِ الذَّات؛ باسمِ الصَّدقات تارَةً، وباسم الأعمالِ الخيريَّةِ (!) تارةً أُخرى .

وَتَراهُم يتَّخذونَ سُلَّماً في ذلك القُربَ مِن السَّلاطين، ومُوادعَةَ أهلِ البِدَع، والقَدْحَ في (مشايخهم)، وتجريحَ (كُبرائهم)، حتى يَخلُوَ لهم (الجَوُّ) !!

ولكنْ؛ ﴿ إنَّ ربَّكَ لَبالمِرصادِ ﴾ .

فِي سبيلِ اللَّه، **والجهادُ أحقُّ الأعمالِ باسم سبيلِ اللَّهِ**[1]، سواءٌ كان مَلِكاً أو مُقدَّماً، أو غنيّاً أو غير ذلك .

وإذا دَخَلَ في هذا ما كُنِزَ مِنَ المالِ الموروثِ والمكسوب، فما كُنِزَ مِنَ الأموالِ المشتركةِ التي **يستحقُّها** عمومُ الأُمَّةِ – ومستحقُّها : مصالحهم – أوْلى وأَحْرى .

○○○○○

(١) وَلَقَد أخبَرني مَن أثِقُ به أنَّهُ سمِعَ عَدَداً مِن أفراد بعض (الجماعات الدَّعويَّة) يأمُرُ بعضَ المسلمين المجاهدين لأعداءِ اللَّهِ أن يتركوا ما هم فيه، ويَخرُجوا معهم (في سبيلِ اللَّهِ) !!

ولا حَولَ وَلا قوَّةَ إلاّ باللَّه .

فصل : [معالمُ سورةِ الأحزاب]

فإذْ تبيَّنَ بعضُ معنى المؤمن والمنافق؛ فإذا قرأ الإنسانُ **سورةَ الأحزاب**، وعرفَ منَ المنقولات في الحديثِ، والتَّفسيرِ، والفقهِ، والمغازي كيفَ كانت صفةُ الواقعَةِ التي نزلَ بها القرآن، ثمَّ اعتبَرَ هذه الحادثة بتلك : وَجَدَ مِصْداقَ ما ذكرنا، وأنَّ النَّاسَ انقَسموا في هذه الحادثة إلى الأقسام الثَّلاثة، كما انقَسموا في تلك، وتبيَّنَ لهُ كثيرٌ منَ المتشابهات .

□ افتَتحَ اللَّهُ السُّورة بقوله : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ اتَّقِ اللَّهَ ولا تُطِعِ الكافرينَ والمنافقينَ ﴾ [الأحزاب: ١] .

وذكرَ في أثنائها قولَه : ﴿ وبَشِر المؤمنينَ بأنَّ لهُم مِنَ اللَّهِ فَضلاً كبيراً ولا تُطِعِ الكافرينَ والمنافقينَ ﴾ [الأحزاب: ٤٧ – ٤٨] .

ثمَّ قال : ﴿ واتَّبِع ما يُوحى إليكَ مِن رَبِّكَ إنَّ اللَّهَ كانَ بما تعمَلونَ خَبيراً وَتَوَكَّل على اللَّهِ وكَفى باللَّهِ خَبيراً ﴾ [الأحزاب: ٢–٣] .

فَأَمَرَهُ باتِّباعِ ما أوحىٰ إليه منَ الكتابِ والحكمَةِ – التي هي سُنَّتُهُ – وبأن يَتوكَّل على اللّٰه .

فبالأولى تُحقِّق قولَه : ﴿ إيَّاكَ نَعبُدُ ﴾ .

وبالثَّانية تحقِّق قولَه : ﴿ وإيَّاكَ نَستَعين ﴾ .

ومثلُ ذلك قولُه : ﴿ فَاعْبُدْهُ وتَوكَّلْ عليه ﴾ [هود:١٢٣]، وقولُه : ﴿ عليهِ تَوكَّلتُ وإليهِ أُنيب ﴾ [هود:٨٨] .

وهذا وإن كانَ مأموراً به في جميعِ الدِّين، فإنَّ ذلك في الجهادِ أوْكَدُ، لأنَّهُ يحتاجُ إلى أن يُجاهَدَ الكفَّار والمنافقين، **وذلك لا يتمُّ إلاّ بتأييدٍ منَ اللّٰه**، ولهذا كان الجهادُ سَنامَ العملِ[1]، وانتظَمَ سَنامَ جميعِ الأحوالِ الشريفَةِ :

ففيهِ سَنامُ المحبَّة، كما في قوله : ﴿ فَسَوفَ يأتِ اللّٰهُ بِقَومٍ يُحبُّهُم ويُحبُّونهُ أذلَّةٍ على المؤمنين أعزَّةٍ على الكافرين يُجاهدونَ في سبيلِ اللّٰه ولا يخافونَ لَومَةَ لائم ﴾ [المائدة:٥٤] .

وفيه سَنامُ التَّوكُّل وسنامُ الصَّبر، فإنَّ المجاهَدَ أحوجُ

(١) كما صحَّ عنهُ ﷺ في أكثَرِ مِن حديثٍ، انظر تخريجها مفصَّلاً في كتاب « الجهاد » (١٥) و (١٦) لابن أبي عاصم؛ بتعليقات أخينا الفاضل مُساعد الرَّاشد وَفَّقهُ اللّٰه .

النَّاسِ إلى الصَّبرِ والتَّوكُّل، لهذا قال تعالى: ﴿ والَّذينَ هاجَروا في اللَّهِ مِن بَعدِ ما ظُلِموا لَنُبَوِّئَنَّهُم في الدُّنيا حسنَةً وَلأجْرُ الآخرَةِ أكبَرُ لَو كانوا يعلَمون الَّذينَ صَبَروا وَعلى ربِّهم يتوكَّلون ﴾ [النحل: ٤١-٤٢]، ﴿ وقالَ موسى لِقَومِهِ استَعينوا باللَّهِ واصبِروا إنَّ الأرضَ للَّهِ يُورِثُها مَن يشاءُ مِن عبادِهِ والعاقِبَةُ للمتَّقين ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ولهذا كانَ الصَّبرُ واليقينُ - اللذين هما أصلُ التَّوكُّل - يُوجبانِ **الإمامةَ في الدِّين**، كما دلَّ عليهِ قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلناهُم أئمَّةً يَهْدونَ بأمرِنا لمَّا صَبَروا وكانوا بآياتِنا يوقِنون ﴾ [السجدة: ٢٤].

ولهذا كانَ الجهادُ مُوجباً للهدايةِ التي هي محيطةٌ بأبوابِ العلم، كما دلَّ عليهِ قوله تعالى: ﴿ والَّذينَ جاهَدوا فينا لنَهدِيَنَّهُم سُبُلنا ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

وفي الجهادِ أيضاً: حقيقةُ الزُّهدِ في الحياةِ الدُّنيا، وفي الدَّارِ الدُّنيا.

وفيهِ أيضاً: حقيقةُ الإخلاصِ، فإنَّ الكلامَ فيمَن جاهَدَ في سبيلِ اللَّه، **لا في سبيلِ الرِّياسة، ولا في سبيلِ المالِ**[1]، **ولا**

(١) ونسألُ اللَّهَ سبحانه أن لا يَفجَعنا فيمن (جاهَدوا) بضعَ =

في **سبيلِ الحَمِيَّة**، وهذا لا يكونُ إلاّ لمن قاتَلَ ليكونَ الدِّينُ كلُّهُ للّه، ولتكونَ كلمةُ اللَّهِ هيَ العُليا .

وأعظمُ مراتبِ الإخلاص : تسليمُ النَّفسِ والمالِ للمعبودِ، كما قال تعالى : ﴿ إنَّ اللّه اشترى منَ المؤمنينَ أنفُسَهُم وأموالَهُم بأنَّ لهم الجنَّةَ يُقاتلونَ في سبيلِ اللّه فيَقتُلونَ ويُقتَلونَ ﴾ [براءة: ١١١] .

والجنَّةُ اسمٌ للدَّارِ التي حَوت كلَّ نعيم، أعلاهُ النَّظرُ إلى اللّه[١]، إلى ما دونَ ذلك ممَّا تشتهيه الأنفسُ وتلذُّ الأعيُن، ممَّا قَد نعرفهُ وقَد لا نعرفهُ، كما قال اللّهُ تعالى فيما رواهُ عنهُ رسولهُ ﷺ : « أعدَدتُ لِعبادي الصَّالحين ما لا عَينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعَت ولا خَطَرَ على قلبِ بَشرٍ »[٢].

فَقَد تبيَّنَ بعضُ أسبابِ افتتاحِ هذه السُّورة بهذا .

= عشرةَ سنةً مُلِئَت بالدِّماءِ والتَّقتيلِ والتَّشريدِ ... ثمَّ ...

لا حولَ ولا قوَّةَ إلاّ باللّه !

(١) وأمَّا المُعتزلة المُنقَرِضون، فَضلاً عن المُعتزلَة (المُعاصِرين) فَأبَوا على أنفسهم رؤيَةَ اللّهِ جلَّ وعَلا، فلعلَّ هذا عقوبةٌ لهم على فسادِ عَقيدتهم؛ حكموا بها مِن أنفسهم على أنفسهم !

(٢) رواه البخاري (٦/٢٣٠)، ومسلم (٢٨٢٤) عن أبي هُريرَة .

□ ثمَّ إنَّهُ تعالى قال : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا اذْكُروا نعمَةَ اللَّهِ عليكُم إذ جاءتكُم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لَم تَرَوها وكانَ اللَّهُ بما تعملونَ بَصيراً ﴾ [الأحزاب: ٩] .

وكان مختَصَر القصَّة[١] :

أنَّ المسلمين تَحزَّبَ عليهم عامَّةُ المشركين الذين حولهم، وجاءوا بِجُموعهم إلى المدينة ليَستأصلوا المؤمنين .

فاجتَمَعَت قريش وحلفاؤها من بني أسَدٍ، وأشجَعَ، وفَزارَةَ، وغيرهم من قبائل نَجد .

واجتمَعَت أيضاً اليهودُ من قُريظة، والنَّضير، فإنَّ بني النَّضير كانَ النَّبيُّ ﷺ قَد أجلاهم قبلَ ذلكَ، كما ذكرهُ اللَّهُ تعالى في سورة الحشر[٢]، فجاءوا في الأحزابِ إلى قُرَيظة، وهم معاهدون للنَّبيِّ ﷺ، ومُجاورونَ له، قريباً منَ المدينة، فلم يزالوا حَتَّى نَقَضَت قُريظةُ العَهدَ، ودخلوا في الأحزاب، فاجتَمَعَت هذه الأحزابُ العظيمة – وهم بقَدْرِ المسلمين مرَّاتٍ

(١) وللتَّوسُّع انظر : « سيرة ابن هشام » (٢٩٩/٣)، و « البداية والنهاية » (٩٤/٤–١٣٧) لابن كثير، و « تاريخ الطَّبري » (٥٦٧/٢)، و « دلائل النُّبوَّة » (٤١٥/٣) للبيهقي .

(٢) الآية الثَّانية : ﴿ هوَ الَّذي أخرَجَ الَّذينَ كَفَروا مِن أهلِ الكِتابِ من ديارِهم لأوَّلِ الحَشرِ ... ﴾ .

متعدِّدةً – فرفعَ النَّبيُّ الذُّرِّيَةَ منَ النِّساء، والصِّبيانَ في آطامِ المدينة، وهي مثل الجواسق[1]، ولم ينقلهم إلى مواضعَ أُخَر، وجَعَلَ ظهرَهُم إلى سَلْعٍ[2] – وهو الجبلُ القريب من المدينة، من ناحية الغرب والشَّام –، وجَعَلَ بينه وبينَ العدوِّ خندقاً، والعدوُّ قد أحاطَ بهم من العاليَةِ والسَّافلَةِ، وكانَ عدوّاً شديدَ العداوَةِ، لو تمكَّنَ من المؤمنين لكانَت نِكايتُهُ فيهم أعظمَ النِّكايات .

وفي هذه الحادثةِ تحزَّبَ هذا العدوُّ من مُغُلٍ[3] وغيرهم من أنواعِ التُّرك، ومن فُرسٍ ومُستَعربَةٍ، ونحوهم من أجناسِ المُرَتدَّة[4]، ومن نصارى، من الأرمن وغيرهم، ونزلَ هذا العدوُّ بجانب ديارِ المسلمين، وهو بينَ الإقدامِ والإحجامِ، مع قلَّةِ مَن بإزائهم مِنَ المسلمين، ومقصودُهم الاستيلاءُ على الدَّارِ، واصطِلامُ[5] أهلها، كما نزلَ أولئكَ بنواحي المدينة بإزاءِ المسلمين .

---

(١) هي الحُصون .

(٢) « مُعجَم البُلدان » (٣/٢٣٦) .

(٣) هم المَغول، وهم التَّتارُ أنفسهم .

(٤) كذا في « مجموع الفتاوى »، وفي « العقود » : « المرقِّدة » !

(٥) هو الاستئصالُ .

ودامَ الحصارُ على المسلمين عامَ الخندَق – على ما قيل[1] – بِضعاً وعشرين ليلةً، وقيل : عشرين ليلةً .

وهذا العدوُّ[2] عَبَرَ الفراتَ سابعَ عشرَ ربيعَ الآخر، وكان أوَّلَ انصرافِهِ راجعاً عن حَلَب، لمَّا رجعَ مُقدَّمُهم الكبيرُ قازانُ بمن معهُ : يومَ الاثنين حادي، أو ثاني عشر، جمادى الأولى، يومَ دخَلَ العسكرُ – عسكرُ المسلمين – إلى مصرَ المحروسة، واجتمعَ بهم الدَّاعي[3]، وخاطبهم في هذه القضيَّة، وكانَ اللَّهُ سبحانهُ وتعالى لمَّا ألقى في قلوبِ المؤمنين ما ألقى منَ الاهتمامِ والعَزم : ألقى في قلوبِ عدوِّهم الرَّوعَ والانصرافَ .

□ وكانَ عامَ الخندَقِ بَردٌ شديدٌ، وريحٌ شديدةٌ مُنكَرَةٌ، بها صَرَفَ اللَّهُ الأحزابَ عن المدينة، كما قال تعالى : ﴿ فأرسَلنا عليهم ريحاً وجُنوداً لَم تَرَوها ﴾ .

وهكذا هذا العام؛ أكثرَ اللَّهُ فيه الثَّلجَ والمطرَ والبَردَ، على خِلافِ أكثرِ العاداتِ، حتى كرِهَ أكثرُ النَّاسِ ذلك، وكُنَّا نقولُ

---

(١) وهذا مِن صِيَغِ التَّمريضِ والتَّضعيفِ عندَ المصنِّف رحمه الله .

(٢) أي : التَّتار .

(٣) يُشيرُ شيخُ الإسلام رحمهُ اللَّه إلى نفسِه، في لقائهِ معَ التَّتار، كما حكاهُ ابنُ كثير – تلميذه – في « البداية والنهاية » (١٦/١٤) .

لهم : لا تكرَهوا ذلك؛ فإنَّ للّهِ فيهِ حكمةً ورحمةً .

وكانَ ذلكَ من أعظَم الأسبابِ التي صرفَ اللّهُ بهِ العَدوَّ، فإنَّهُ كثُرَ عليهم الثَّلجُ والمطرُ والبَردُ، حتى هَلَكَ مِن خَيلهم ما شاءَ اللّه، وهَلَكَ أيضاً منهم من شاءَ اللّه، وظهَرَ فيهم وفي بقيَّةِ خَيلهم منَ الضَّعف والعَجزِ بسببِ البَردِ والجوعِ ما رأوا أنَّهم لا طاقَةَ لهم معهُ بقتالٍ، حتى بلغني عن بعضِ كبارِ المُقدَّمين في أرضِ الشأم أنَّهُ قال : لا بيَّضَ اللّهُ وجوهَنا ، عدوُّنا في الثَّلجِ إلى شعرهِ، ونحنُ قعودٌ لا نأخذُهم !!

وحتى عَلِموا أنَّهم كانوا صيداً للمسلمين، لو يصطادونهم، **لكنَّ في تأخيرِ اللّه اصطيادَهم حكمةً عظيمةً** .

□ وقال اللّهُ تعالى في شأنِ الأحزاب : ﴿ إِذْ جاءُوكُم مِن فَوقِكُم ومِن أسفَلَ منكُم وإِذْ زاغَت الأبصارُ وبَلَغَت القلوبُ الحناجرَ وتَظنُّونَ باللّهِ الظُّنونا هُنالكَ ابتُليَ المؤمنونَ وزُلزِلوا زلزالاً شديداً ﴾ [الأحزاب: ١٠-١١] .

وهكذا هذا العام، جاءَ العدوُّ[١] من ناحيتي علوِّ الشأم، وهو شمالُ الفرات، وهو قِبليَّ الفُرات، فزاغَت الأبصارُ زيغاً عظيماً، وبلغَت القلوبُ الحناجرَ، لِعِظَمِ البلاء، لا سيَّما لمَّا

---

(١) هم التَّتار .

استفاضَ الخَبَرُ بانصِرافِ العَسكَر إلى مصرَ، وتقرُّبِ العدوِّ، وتوجُّههِ إلى دمشق، وظنَّ النَّاسَ باللَّهِ الظُّنونا .

هذا يظنُّ : أنَّهُ لا يقفُ قُدَّامَهم أحدٌ من جُندِ الشأم، حتى يصطلِموا أهلَ الشأم .

وهذا يظنُّ : أنَّهم لو وَقفوا لكَسروهم كَسرَةً، وأحاطوا بهم إحاطَةَ الهالةِ بالقمر .

وهذا يظُنُّ : أنَّ أرضَ الشأمِ ما بقيَت تُسْكَنُ، ولا بقيَت تكونُ تحتَ مملكةِ الإسلام .

وهذا يظنُّ : أنَّهم يأخذونها، ثمَّ يذهبونَ إلى مصرَ فيستَولونَ عليها، فلا يقفُ قُدَّامَهم أحد، فيحدِّث نفسَهُ بالفرارِ إلى اليمن، ونحوها .

وهذا - إذا أحسَنَ ظنَّهُ - قال : إنَّهم يملكونها العام، كما ملكوها عام هولاكو[1]، سنة سبعٍ وخمسين، ثمَّ يخرجُ العسكرُ من مصرَ فيستَنقذُها منهم، كما خَرَجَ ذلك العام !

وهذا ظنُّ خيارهم !

وهذا يظنُّ : أنَّ ما أخبرهُ بهِ أهلُ الآثارِ النَّبويَّة، وأهلُ التَّحديثِ والمبشراتِ أمانيٌّ كاذبةٌ، وخُرافاتٌ لاغيةٌ .

---

(١) قارن بـ « البداية والنهاية » (١٣/١٩٩-٢٤٥) .

وهذا قَد استَولى عليهِ الرُّعبُ والفَزعُ، حتى يمرَّ الظنُّ بفؤادهِ مرَّ السَّحابِ، **ليسَ لهُ عقلٌ يتفهَّمُ، ولا لسانٌ يتكلَّمُ** .

وهذا قَد تعارَضَت عندَهُ الأمارات، وتقابلَت عندهُ الإرادات، لاسيَّما وهو لا يُفرِّقُ من المُبَشرات بينَ الصَّادق والكاذب، ولا يُميِّزُ في التَّحديثِ بينَ المخطىء والصَّائب، ولا يعرفُ النُّصوصَ الأثريَّةَ معرفَةَ العلماء، بل إمَّا أن يكونَ جاهلاً بها وقَد سَمِعَها سماعَ العِبَرِ[1]، ثمَّ قَد لا يتفطَّن لوجوهِ دلالتها الخفيَّة، ولا يهتَدي لدَفعِ ما يتخيَّلُ أنَّهُ معارضٌ لها في بادىءِ الرُّؤيَةِ .

فلذلكَ استولَت الحيرَةُ على مَن كانَ متَّسماً بالاهتداءِ، وتراجمت به الآراءُ تراجُمَ الصِّبيانِ بالحصباء، ﴿ هنالكَ ابتُليَ المؤمنونَ وزُلزلوا زلزالاً شديداً ﴾، ابتلاهم اللَّهُ بهذا الابتلاء، الذي يُكفِّر به خطيئاتِهم، ويرفعُ به درجاتِهم، وزُلزلوا بما يحصُلُ لهم منَ الرَّجفات، ما استَوجبوا به أعلى الدَّرجات .

□ قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وإذْ يَقولُ المنافقونَ والَّذينَ في قلوبهم مَرَضٌ ما وَعَدَنا اللَّهُ ورسولهُ إلاَّ

(١) أي : سمعها كموعظةٍ تمرُّ في أُذنهِ، لا كأصلٍ ينبغي أن يبني عليهِ فِكرَهُ وتَصوُّرَهُ .

غُروراً ﴾ [الأحزاب: ١٢] .

وهكذا قالوا في هذه الفتنةِ فيما وعدهم أهلُ الوراثةِ النَّبويَّة، والخلافةِ الرسائيَّة، وحزبُ اللَّه المحدّثون عنه، حتى حَصَلَ لهؤلاء التَّأسِّي برسولِ اللَّه ﷺ، كما قال اللَّه تعالى: ﴿ لَقَد كانَ لكُم في رَسولِ اللَّهِ أُسوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فأمَّا المنافقونَ فَقَد مَضى التَّنبيهُ عليهم .

□ وأمَّا الذينَ في قلوبهم مَرَضٌ فَقَد تكرَّرَ ذِكرهمُ في هذه السُّورَة، فَذُكروا هُنا، وفي قولهِ : ﴿ لَئن لَّمْ يَنتَهِ المنافقونَ والَّذينَ في قلوبهم مَرَضٌ والمُرْجِفونَ في المدينَةِ ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، وفي قوله : ﴿ فيَطمَعَ الَّذي في قَلبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٢] .

وذكَرَ اللَّهُ مَرَضَ القلبِ في مواضِعَ؛ فقال تعالى : ﴿ إذْ يَقولُ المنافقونَ والَّذينَ في قلوبهم مَرَضٌ غرَّ هؤلاءِ دينُهُم ﴾ [الأنفال: ٤٩] .

والمرضُ في القلبِ كالمرَضِ في الجسَدِ، فكما أنَّ هذا هو إحالةٌ عن الصِّحَّةِ والاعتدالِ، من غير موتٍ، فكذلك قَد يكونُ في القلبِ مَرَضٌ يُحيلهُ عن الصِّحَّة والاعتدالِ، مِن غَيرِ أن

يموتَ القَلبُ، سواءٌ أفْسَدَ إحساسَ القَلبِ وإدراكَهُ، أو أفسَدَ عملَهُ وحَركتَهُ .

وذلك – كما فسَّروه – : هو مِن ضَعفِ الإيمان، إمَّا بضَعفِ علمِ القَلبِ واعتقادِهِ، وإمَّا بضَعفِ عملِهِ وحركتِهِ، فيَدخُلُ فيهِ مَن ضَعُفَ تَصديقهُ، ومَن غَلَبَ عليهِ الجُبْنُ والفَزعُ، **فإنَّ أدواءَ القلبِ[1] مِنَ الشهوَةِ المحرَّمةِ والحَسَدِ والجُبنِ والبُخلِ وغيرِ ذلك، كلُّها أمراضٌ، وكذلك الجَهلُ والشكوكُ والشبهاتُ التي فيهِ .**

وعلى هذا فَقولهُ : ﴿ فيَطمَعَ الَّذي في قَلبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب:٣٢]، هو إرادَةُ الفجورِ، وشهوةُ الزِّنا، كما فسَّروهُ بهِ، ومنهُ قولُ النَّبيِّ ﷺ :« وأيُّ داءٍ أدوأُ مِنَ البُخلِ ؟ »[2] .

وَقَد جَعَلَ اللَّهُ تعالى كتابَهُ شفاءً لما في الصُّدور[3] .

---

(١) وللمُصنِّف رحمهُ اللَّه رسالةٌ :« التُّحفة العِراقيَّة في الأعمالِ القلبيَّة ».

(٢) حديثٌ صحيحٌ، رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٢٩٦)، وأبو الشيخ في « الأمثال » (٩١) و (٩٢) و (٩٣)، والقُضاعي في « مُسنَد الشهاب » (٢٨٦) و (٢٨٧)، وأبو نُعيم في « الحلية » (٣١٧/٧)، والخطيب في « التَّاريخ » (٢١٧/٤) من طُرُق عن جابر مَرفوعاً .

(٣) كما في قولهِ تعالى : ﴿قَدْ جاءَتْكُم مَوْعِظَةٌ مِن ربِّكُم وَشِفاءٌ لِما في الصُّدور ﴾ [يونس:٥٧] .

وقال النَّبيُّ ﷺ : « إنَّما شفاءُ العَيِّ السُّؤال »[1].

وكان يقولُ في دعائِهِ : « اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِن مُنكراتِ الأخلاقِ والأهواءِ والأدواءِ »[2].

ولن يخافَ الرَّجُلُ غيرَ اللَّهِ إلاّ لمَرَضٍ في قلبهِ .

كما ذكروا أنَّ رجلاً شكا إلى أحمَدِ بن حَنبَلٍ خَوفَهُ مِن بَعضِ الوُلاةِ، فقال : لَو صَحَحْتَ لَم تَخَفْ أحَداً .

أي : خوفُكَ مِن أجلِ زوالِ الصِّحَّةِ مِن قلبِكَ .

ولهذا : أوجَبَ اللَّهُ على عبادِهِ أن لا يخافوا حزبَ الشيطان، بل لا يخافونَ غيرَهُ تعالى، فقال : ﴿ إنَّما ذٰلِكُم الشيطانُ يُخَوِّفُ أولياءَهُ فلا تخافوهُم وخافونِ إن كُنتُم

---

(١) حديثٌ صحيحٌ، رواه أبو داود (٣٣٦)، والدَّارقطني (١/١٨٩-١٩٠)، والبيهقي (١/٢٢٧)، والبغوي (٢/١٢٠)، والقُضاعي (١١٦٣) عن جابر بسند فيه ضعفٌ .

وله طريقٌ آخرُ يُقَوِّيه :

أخرجهُ ابن ماجه (٥٧٢)، والحاكم (١/١٨٧) عن ابن عبَّاس مُختَصراً .

وانظر « إرواء الغليل » (رقم:١٠٥) لشيخنا الألباني، و « غوث المكدور » (١٢٨) لأخينا الحُويني .

(٢) رواه الترمذي (٣٥٩١)، وابن حبّان (٩٦٠)، والطَّبراني في « الكبير » (١٩/١٩)، والحاكم في « المستدك » (١/٥٣٢) عن قُطبة بن مالك بسندٍ جيِّد .

مُؤمنين ﴾ أي : يُخوِّفُكم أولياءَهُ .

وقالَ لعمومِ بني إسرائيلَ تَنبيهاً لنا : ﴿ وإيَّايَ فارْهَبون ﴾ [البقرة : ٤٠] .

وقالَ : ﴿ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ واْخْشونِ ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وقال : ﴿ لِئَلاَّ يَكونَ للنَّاسِ عَليكُم حُجَّةٌ إلاّ الَّذينَ ظَلموا مِنهُم فلا تَخشَوهُم واخشَوني ﴾ [البقرة : ١٥٠] .

وقال تعالى : ﴿ اليَومَ يَئِسَ الَّذينَ كَفَروا مِن دينكُم فلا تَخشَوهُم واخْشَونِ ﴾ [المائدة : ٣] .

وقال : ﴿ إنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَن آمَنَ باللَّهِ واليَوم الآخِرِ وأقامَ الصَّلاةَ وآتى الزَّكاةَ ولَم يَخْشَ إلاّ اللَّهَ ﴾ [التوبة : ١٨] .

وقال : ﴿ الَّذينَ يُبَلِّغونَ رسالاتِ اللَّهِ ويَخشونَهُ ولا يَخشونَ أحداً إلاّ اللَّهَ ﴾ [الأحزاب : ٣٩] .

وقال : ﴿ ألاَ تُقاتِلونَ قَوماً نَكَثوا أيْمانَهُم وهَمُّوا بإخراجِ الرَّسولِ وهُم بَدَءوكُم أوَّلَ مَرَّةٍ أتَخشونَهُم فاللَّهُ أحقُّ أن تَخشَوْهُ ﴾ [التوبة : ١٣] .

□ فدلَّت هذه الآيَةُ – وهي قولُهُ تعالى : ﴿ إذْ يَقولُ المنافقونَ والَّذينَ في قلوبِهِم مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب : ١٢] – على أنَّ

المَرَضَ والنِّفاقَ في القَلبِ يُوجِبُ الرَّيبَ في الأنباءِ الصَّادقَةِ التي توجِبُ أمْنَ[1] الإنسانِ مِنَ الخَوفِ، حتى يظنُّوا أنَّها كانَت غُروراً لهم، كما وَقَعَ في حادثتِنا هذا سواءاً .

□ ثمَّ قالَ تعالى : ﴿ وإذْ قالَت طائفَةٌ منهُم يا أهلَ يَثرِبَ لا مقامَ لكُم فَارْجِعوا ﴾ [الأحزاب:١٣] .

وكانَ النَّبيُّ ﷺ قَد عَسكَرَ بالمسلمين عندَ سَلْعٍ ، وجَعَلَ الخَندَق بينَهُ وبينَ العدوِّ، فقالت طائفةٌ منهم : لا مُقامَ لكُم هنا - لكَثرَةِ العَدوِّ - فَارجِعوا إلى المدينةِ .

وقيلَ : لا مقامَ لكُم على دينِ محمَّد، فَارجِعوا إلى دينِ الشِّركِ .

وقيلَ : لا مقامَ لكُم على القتالِ، فَارجِعوا إلى الاستئمانِ والاستجارَةِ بهم[2] .

وهكذا لمَّا قدم هذا العدوُّ كانَ مِنَ المنافقين مَن قال : ما بقيتِ الدَّولةُ الإسلاميَّةُ تقومُ، فيَنبغي الدُّخولُ في دولةِ التَّتار[3] !

وقال بعضُ الخاصَّة : ما بقيَت أرضُ الشأمِ تُسكَنُ، بل

---

(١) كذا في « مجموع الفتاوى »، وفي « العقود » : « كفر » !!!

(٢) انظر « الدُّر المنثور » (٦/٥٧٨)، و « تفسير الطَّبري » (٢١/١٣٥).

(٣) ومثلهُ ما حَدَثَ مِن بَعضِ الضُّعفَىٰ في فتنةٍ عَصفَت بالأمَّةِ قريباً !

نَنتقلُ عنها، إمَّا إلى الحجاز واليمن، وإمَّا إلى مصر !

وقال بعضُهم : بل المصلَحَةُ الاستسلام لهؤلاء، كما قد استسلمَ لهم أهلُ العراق، والدُّخولُ تحتَ حكمِهم ! !

فهذه المقالات الثَّلاث قد قيلت في هذه النَّازلة، كما قيلت في تلك، وهكذا قال طائفةٌ منَ المنافقين، والذين في قلوبهم مَرَضٌ، لأهلِ دِمَشق خاصَّةً والشأم عامَّةً : لا مُقامَ لكُم بهذه الأرض .

ونفيُ المَقام[1] بها أبلَغُ مِن نَفي المُقام، وإن كانَت قَد قُرئت بالضمِّ أيضاً، فإنَّ مَن لم يقدِر أن يقومَ بالمكان، فكيفَ يُقيمُ به ؟

□ قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَيَستأذِن فَريقٌ منهم النَّبيَّ يقولونَ إنَّ بيُوتَنا عَورةٌ وما هي بِعَورَةٍ إن يُريدونَ إلَّا فِراراً ﴾ [الأحزاب: ١٣] .

كانَ قومٌ من هؤلاء المذمومين يقولون – والنَّاسُ مع النَّبيِّ ﷺ عندَ سَلْعٍ داخِلَ الخَندَق، والنِّساءُ والصِّبيانُ في

---

(١) بفتح الميم، وهي قراءةُ مَن سوى حَفصٍ، مِن القُرَّاءِ السَّبعة .
وقرأ حفصٌ وحدَه : بضمِّ الميم .
وانظر « حُجَّةُ القراءات » (ص: ٥٧٤) لابن زَنْجلة .

آطام[1] المدينة – : يا رسولَ اللَّه، إنَّ بيوتَنا عَورةً – أي : مكشوفة – فليسَ بينها وبينَ العَدوِّ حائلٌ !

وأصلُ العَورَة : الخالي، الذي يحتاج إلى حفظٍ وسترٍ، يقال : أعوَرَ مجلسُكَ : إذا ذهَبَ سترهُ، أو سَقَطَ جدارهُ، ومنهُ : عورةُ العَدوِّ .

وقال مجاهدٌ والحَسَن : أي : ضائعةٌ يُخشى عليها السُّراق .

وقال قتادة : قالوا : بيتُنا ممَّا يَلي العدوَّ، فلا نأمَنُ على أهلنا، فأْذَنْ لنا أن نَذهَبَ إليها، لحِفظِ النِّساءِ والصِّبيان[2] .

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وما هيَ بعَورَةٍ ﴾ لأنَّ اللَّهَ يحفَظُها؛ ﴿ إن يُريدونَ إلاّ فِراراً ﴾ فهم يَقصدونَ الفِرارَ منَ الجهاد، ويحتجُّونَ بحجَّةِ العائلةِ .

وهكذا أصابَ كثيراً منَ النَّاس في هذه الغزاة، صاروا يفرُّون منَ الثَّغرِ إلى المعاقِلِ والحصونِ، وإلى الأماكن البَعيدة، كمصر، ويقولون : ما مَقصودُنا إلاّ حفظُ العيال، وما يُمكنُ

---

(١) هي البيوتُ المُسطَّحة .

(٢) انظر « زاد المسير » (٣٦١/٦) لابن الجوزي، و « معالم التَّنزيل » (٤٤٦/٤) للإمام البَغَويِّ .

إرسالَهُم مع غيرنا ! **وهم يكذبون**، فقد كان يُمكنهُم جعلُهُم في حصنِ دِمَشق، لو دَنا العدوُّ، كما فَعَلَ المسلمون على عَهدِ رسولِ اللّه ﷺ، وقَد كانَ يمكنهُم إرسالهم والمقامُ للجهاد، فكيفَ بمن فرَّ بعدَ إرسالِ عيالَه ؟

□ قال اللّهُ تعالى : ﴿ وَلَو دُخِلَت عَليهِم مِن أقطارِها ثُمَّ سُئلوا الفِتنَةَ لآتَوْها وما تَلَبَّثوا بها إلاّ يَسيراً ﴾ [الأحزاب: ١٤]، فأخبَرَ أنَّهُ دُخِلَت عليهم المدينة من جوانبها ثمَّ طُلِبَت منهم الفتنةُ – وهي الافتتانُ عن الدِّين بالكُفر، أو النِّفاق – لأُعطوا الفتنَةَ، ولجاءوها مِن غَيرِ توقُّف .

وهذه حالُ أقوامٍ لَو دخَلَ عليهم هذا العَدوُّ المنافقُ المجرمُ، ثمَّ طَلبَ منهم موافقتَهُ على ما هو عليه مِنَ الخروجِ عن شريعةِ الإسلام – وتلكَ فتنَةٌ عظيمةٌ – لكانوا معهُ على ذلك، كما ساعدهم في العام الماضي أقوامٌ بأنواعٍ مِنَ الفتنَةِ في الدِّين والدُّنيا، ما بينَ تَركِ واجباتٍ، وفعلْ محرَّماتٍ؛ إمَّا في حقِّ اللّهِ، وإمَّا في حقِّ العباد، كتَركِ الصَّلاة، وشربِ الخمورِ، **وسبِّ السَّلفِ**، وسبِّ جنودِ المسلمين، والتَّجسُّس لهم على المسلمين، ودلالتهم على أموالِ المسلمين، وحريمهم، وأخذِ أموالِ النَّاس، وتَعذيبهم، وتَقويَة دولتهم الملعونة، وإرجافِ

قلوب المسلمين منهم، إلى غيرِ ذلك من أنواعِ الفتنةِ .

□ ثمَّ قال تعالى : ﴿ وَلَقَد كانوا عاهَدوا اللَّهَ مِن قبلُ لا يُوَلُّونَ الأدبارَ وكانَ عَهدُ اللَّهِ مَسئولاً ﴾ [الأحزاب: ١٥]، وهذه حالُ أقوامٍ عاهَدوا ثمَّ نكثوا، قديماً وحديثاً، في هذه الغَزوة .

فإنَّ في العام الماضي - وفي هذا العام - في أوَّلِ الأمر، كانَ مِن أصنافِ النَّاسِ مَن عاهَدَ على أن يقاتلَ ولا يفرَّ، ثمَّ فرَّ منهزماً، لمَّا اشتدَّ الأمرُ .

□ ثمَّ قال اللَّهُ تعالى : ﴿ قُل لَن يَنفَعَكُم الفِرارُ إن فَرَرتُم مِنَ المَوتِ أو القَتلِ وإذاً لا تُمَتَّعونَ إلاَّ قليلاً ﴾ [الأحزاب: ١٦]، فأخبَرَ اللَّهُ أنَّ الفرارَ لا ينفعُ لا مَن الموتِ ولا منَ القَتلِ، **فالفرارُ منَ الموتِ كالفرارِ منَ الطَّاعون**؛ ولذلكَ قال النَّبيُّ ﷺ : « إذا وَقعَ بأرضٍ وأنتُم بها فلا تَخرُجوا فراراً منهُ »[1] والفرارُ منَ القَتلِ كالفرارِ منَ الجهادِ .

وحرف ﴿ لَن ﴾ ينفي الفعلَ في الزَّمن المستَقبل، والفعلُ نكرةٌ، والنَّكرةُ في سياقِ النَّفيِ تَعُمُّ جميعَ أفرادِها .

---

(١) رواه البخاري (١٠/١٥٥)، ومسلم (٢٢١٩) عن ابن عُمر .
وانظر - لزيادة الفائدة - : « بذل الماعون في فَضلِ الطَّاعون » (ص: ٢٤١-٣١٢) للحافظ ابن حجَر رحمه اللَّه .

فاقتَضى ذلك : أنَّ الفرارَ منَ الموتِ أو القَتلِ ليسَ فيهِ منفعَةٌ أبداً، وهذا خَبَرُ اللَّهِ الصَّادقُ، فمن اعتَقَدَ أنَّ ذلكَ ينفعهُ فَقَد كذَّبَ اللَّهَ في خبرِهِ .

والتَّجرِبَةُ تَدلُّ على مثلِ ما دلَّ عليهِ القرآن، فإنَّ هؤلاء الذين فَرُّوا في هذا العام لم يَنفَعْهم فرارُهم، بل خسروا الدِّين والدُّنيا، وتفاوَتوا في المصائب، والمرابطونَ الثَّابتونَ نَفعهم ذلكَ في الدِّين والدُّنيا، حتى الموتُ الذي فَرُّوا منهُ كثُرَ فيهم، وقلَّ في المقيمين، فماتَ مع[1] الهَرَبِ مَن شاءَ اللَّهُ، والطَّالبونَ للعدوِّ والمعاقبونَ له لم يمُت منهم أحَدٌ، ولا قُتلَ، بل الموتُ قلَّ في البَلَدِ من حينِ خَرَجَ الفارُّونَ، وهكذا سُنَّةُ اللَّهِ قَديماً وحديثاً .

□ ثمَّ قالَ تعالى : ﴿ وإذاً لا تُمَتَّعونَ إلاّ قليلاً ﴾ [الأحزاب: ١٦]، يقول : لو كانَ الفرارُ ينفَعُكم لم ينفعْكم إلاّ حياةً قليلَةً، ثمَّ تموتونَ، فإنَّ الموتَ لا بدَّ منهُ .

وقَد حُكيَ عن بعضِ الحَمقى أنَّهُ قال : فنَحنُ نُريدُ ذلكَ القليل !!

وهذا جَهلٌ منهُ بمعنى الآيَةِ، فإنَّ اللَّه لَم يقُل : إنَّهم

---

(١) كذا في « العقود »، وفي « مجموع الفتاوى » : « فما مَنَعَ الهَرَبُ ... » وَلِكلٍّ وَجهٌ، واللَّهُ أعلم .

يُمتَّعونَ بالفرارِ قليلاً، لكنَّهُ ذكرَ أنَّهُ لا منفعَةَ فيهِ أبداً .

ثمَّ ذكرَ جواباً ثانياً : أنَّهُ لو كانَ لم يكُن فيهِ إلاّ متاعٌ قليلٌ .

□ ثمَّ ذكرَ جواباً ثالثاً : وهو أنَّ الفارَّ يأتيهِ ما قُضيَ لهُ منَ المضرَّةِ، ويأتي الثَّابتَ ما قُضيَ لهُ منَ المسرَّة، فقال : ﴿ قُل مَن ذا الَّذي يَعصِمكُم مِنَ اللَّهِ إن أرادَ بكُم سوءاً أو أرادَ بكُم رَحمةً ولا يَجدونَ لهم من دونِ اللَّهِ وَليّاً ولا نَصيراً ﴾ [الأحزاب:١٧] .

ونظيرهُ : قولهُ في سياقِ آياتِ الجهادِ ﴿ أينما تَكونوا يُدرِكْكُم المَوتُ وَلو كُنتُم في بُروجٍ مُشيَّدَةٍ ﴾ [النساء:٧٨] .

وقولهُ : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تَكونوا كالَّذينَ كَفَروا وَقالوا لإخوانهِم إذا ضَرَبوا في الأرضِ أو كانوا غُزّاً لَو كانوا عِندَنا ما ماتوا وَما قُتِلوا لِيَجعَلَ اللَّهُ ذلكَ حَسرَةً في قلوبهم واللَّهُ يُحيي ويُميتُ واللَّهُ بما تَعمَلونَ بَصيرٌ ﴾ [آل عمران:١٥٦] .

فمضمونُ الأمرِ : أنَّ المنايا محتومَةٌ، فَكَم ممَّن حَضَرَ الصُّفوفَ فَسَلِمَ، وكَم ممَّن فرَّ منَ المنيَّةِ فصادَفَتهُ !

كما قال خالدُ بن الوليد – لمَّا احتُضِرَ : « لَقَد حضَرتُ كذا وكذا صفّاً، وإنَّ بِبَدني بِضعاً وثمانينَ، ما بينَ ضَربةٍ بسيفٍ،

وطَعنَةٍ برُمحٍ، ورَميَةٍ بسَهم، وهاأنذا أموتُ على فراشي كما يموتُ العَنز، **فلا قرَّت أعيُن الجبناء**»[1].

□ ثمَّ قال تعالى: ﴿ قَد يَعلَمُ اللَّهُ المُعوِّقينَ مِنكُم والقائلينَ لإخوانهم هلُمَّ إلينا ﴾ [الأحزاب:١٨].

قال العلماء: كانَ مِن المنافقين مَن يرجعُ منَ الخَندقِ فيَدخُل المدينةَ، فإذا جاءَهم أحدٌ قالوا لهُ: وَيحَكَ، اجلِس، فلا تَخرُج! ويَكتبونَ بذلك إلى إخوانهم الذين بالعسكر: أنِ ائتونا بالمدينةِ، فإنَّا نَنتظرُكُم، يُثبِّطونَ عن القتالِ، وكانوا لا يأتونَ العسكرَ إلاّ أن لا يجدوا بُدّاً، فيأتونَ العسكرَ ليَرى النَّاسُ وجوهَهُم، فإذا غُفِلَ عنهم عادوا إلى المدينة، فانصرَفَ بعضهم من عندِ النَّبيِّ ﷺ، فَوَجَدَ أخاهُ لأبيهِ وأمِّهِ وعندهُ شِواءٌ ونَبيذٌ، فقال: أنتَ هاهُنا، ورسولُ اللَّهِ ﷺ بينَ الرِّماحِ والسُّيوف؟ هلمَّ إليَّ، فَقَد أحيطَ بك وبصاحبكَ[2].

---

(١) انظر «البداية والنهاية» (١١٣/٧)، و«الإصابة» (١٤٧٧)، و«فتح الباري» (١٦٠/٣)، و«سير النُّبلاء» (٣٦٧/١)، و«أُسد الغابة» (١٠٩/٢).

(٢) رواه ابنُ أبي حاتم في «تفسيره» – كما في «الدُّر المنثور» (٥٨٠/٦) عن ابن زَيد مُعْضلاً!

وهو متروكٌ. =

فوَصَفَ المثبِّطينَ عن الجهادِ – وهم صِنفان – بأنَّهم إمَّا أن يكونوا في بلدِ الغُزاةِ، أو في غيرِهِ :

فإن كانوا فيه؛ عوَّقوهم عن الجهادِ بالقَولِ، أو بالعملِ، أو بهما .

وإنِ كانوا في غيرِهِ؛ راسلوهم، أو كاتبوهم: بأن يخرُجوا إليهم من بلدِ الغُزاة، ليكونوا معهم بالحصونِ، أو بالبُعدِ .

كما جرى في هذه الغَزاةِ، فإنَّ أقواماً في العَسكرِ والمدينةِ وغيرها صاروا يُعَوِّقونَ مَن أرادَ الغزوَ، وأقواماً بَعثوا من المعاقِلِ والحصونِ إلى إخوانهم : هلمَّ إلينا ! !

□ قال اللَّهُ تعالى فيهم : ﴿ ولا يأتونَ البَأسَ إلا قليلاً أشحَّةً عليكم ﴾ [الأحزاب:١٨-١٩]، أي : بخلاء عليكم بالقتالِ معكم، والنَّفقةِ في سبيلِ اللَّهِ .

وقال مجاهدٌ : بخلاء عليكم بالخَيرِ والظَّفَرِ والغَنيمَةِ .

وهذه حالُ مَن بخلَ على المؤمنينَ بنَفسهِ ومالِهِ،[1] **أو شحَّ عليهم بفَضلِ اللَّهِ : مِن نَصرِهِ، ورِزقِهِ الذي يُجريهِ بفعلِ غيرِهِ،** فإنَّ أقواماً يشحُّونَ بمعروفهم، وأقواماً يشحُّونَ بمعروفِ اللَّهِ

= ثم رأيتُه في « تفسير ابن جرير » (١٣٩/٢١) بالسَّند ذاتِهِ .

(١) فَلْيَتَّقِ اللَّهَ ربَّه بما هوَ مُستَخلَفُهُ فيه .

وفَضلهِ، **وهم الحُسّاد**[1].

□ ثمَّ قالَ تعالى : ﴿ فإذا جاءَ الخَوفُ رأيتَهم يَنظرونَ إليكَ تَدورُ أعيُنُهم كالَّذي يُغشى عليهِ منَ الموتِ ﴾ [الأحزاب: ١٩]؛ من شدَّةِ الرُّعبِ الذي في قلوبهم يُشبهونَ المُغمى عليهِ وقتَ النَّزع، فإنَّهُ يخافُ، ويَذهَلُ عقلهُ، ويَشخصُ بَصرُه، ولا يَطرِفُ، فكذلكَ هؤلاءِ، لأنَّهم يخافونَ القَتلَ .

□ ﴿ فإذا ذَهَبَ الخَوفُ سَلَقوكُم بألسِنَةٍ حِدادٍ ﴾ [الأحزاب: ١٩] .

ويقالُ في اللغةِ : « صَلقوكُم »[2] وهو رفعُ الصَّوتِ بالكلامِ المؤذي، ومنهُ « الصَّالقةُ »[3] وهي التي تَرفعُ صَوتها بالمصيبَةِ .

---

(١) نعوذُ باللّهِ مِن الحَسَد وأهلهِ .

ورحِمَ اللّهُ مَن قال :

دَعِ الحَسودَ وما يَلقاهُ مِن كَمَدٍ   كَفاكَ منهُ لهيبُ النَّارِ في كَبِدِه

إن لُمتَ ذا حَسَدٍ نَفَّستَ كُربتَه   وإن سَكَتَّ فَقَد عذَّبتَهُ بيــدِه

(٢) « القاموس المحيط » (١١٦٤) .

(٣) روى مسلم (١٠٤) عن أبي موسى الأشعريِّ ضِمنَ حديثٍ : « ... فإنَّ رسولَ الله ﷺ برىءَ مِن الصَّالقةِ، والحالقَةِ، والشاقَّةِ » .

يقال : صَلَقَهُ، وسَلَقَهُ - وَقَد قرأَ طائفةٌ منَ السَّلفِ بها[1] ، لكنَّها خارجَةٌ عنِ المصحَف - إذا خاطبهُ خطاباً شديداً قويَّاً، ويقال : خطيبٌ مِسلاقٌ، إذا كانَ بليغاً في خطبتهِ، لكنَّ الشدَّة هنا في الشرِّ لا في الخَيرِ، كما قال : ﴿ بألسِنَةٍ حِدادٍ أشحَّةً على الخَيرِ ﴾ .

وهذا السَّلقُ بالألسنَةِ الحادَّةِ يكونُ بوجوهٍ :

تارَةً يقولُ المنافقونَ للمؤمنينَ : هذا الذي جَرَى علينا بشؤمكُم، فإنَّكُم أنتُم الذينَ دعوتم النَّاسَ إلى هذا الدِّين، وقاتلتُم عليهِ، وخالفتموهم ! !

فإنَّ هذا مقالةُ المنافقينَ للمؤمنينَ منَ الصَّحابَةِ .

وتارَةً يقولونَ : أنتُم الذين أشرتُم علينا بالمُقام هنا، والثَّباتِ بهذا الثَّغرِ إلى هذا الوَقتِ، وإلاّ فلَو كُنَّا سافَرنا قبلَ هذا لَما أصابَنا هذا ! !

وتارَةً يقولونَ : أنتُم مَعَ قلَّتِكُم وَضعَفِكُم تُريدونَ أن تَكسِروا العَدوَّ، وقَد غرَّكُم دينُكُم، كما قال تعالى : ﴿ إذ يقولُ المنافقونَ والَّذينَ في قلوبهم مَرَضٌ غَرَّ هؤلاءِ دينُهُم وَمَن يَتوكَّل على اللَّهِ فإنَّ اللَّهَ عزيزٌ حكيمٌ ﴾ [الأنفال:٤٩] ! !

---

(١) انظر « زاد المسير » (٣٦٦/٦) لابن الجوزي .

وتارَةً يقولونَ : أنتُم مجانينُ، لا عَقلَ لكُم، تريدونَ أن تُهلكوا أنفسَكُم والنَّاسَ معكُم[1] !!

وتارَةً يقولونَ أنواعاً منَ الكلامِ المؤذي الشديد، وهم مع ذلك أشحَّةٌ على الخَيرِ، أي : حِراصٌ على الغَنيمَةِ والمالِ الذي قَد حَصَلَ لكم .

قال قتادَة : إن كانَ وقتُ قسمةِ الغَنيمَةِ، بَسَطوا ألسنَتَهُم فيكم، يقولونَ : أعطونا، فلستم بأحقَّ بها منَّا، فأمَّا عندَ البأسِ فأجبَنُ قومٍ وأخذَلُهُم للحقِّ، وأمَّا عندَ الغنيمَةِ فأشحُّ قومٍ .

وقيلَ : أشحَّةً على الخَيرِ، أي بُخلاء به، لا ينفعونَ، لا بنفوسهم ولا بأموالهم .

وأصلُ الشحِّ : شدَّةُ الحِرصِ الذي يتولَّدُ عنهُ البُخلُ والظُّلمُ : مِن منعِ الحقِّ، وأخذِ الباطلِ، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ : « إيَّاكُم والشحَّ، فإنَّ الشحَّ أهلَكَ مَن كانَ قبلكُم؛ أمرهم بالبُخلِ فَبَخِلوا، وأمَرَهُم بالظُّلمِ فظلموا، وأمرَهُم بالقَطيعَةِ فَقَطعوا »[2].

---

(١) وهذه كلمةُ حقٍّ في (بعضِ) الأحيان، لكنَّها هنا يُرادُ بها باطلٌ !

(٢) رواه أبو داود (١٦٩٨)، والطَّيالسي (٢٢٧٢)، وأحمد (١٥٩/٢ و ١٩٥ و ١٩١)، والحاكم (١١/١)، وابن نصر في « تعظيم قَدرِ =

فهؤلاءِ أشِحَّاءُ على إخوانهم، أي : بخلاء عليهم، وأشحَّاءُ على الخَير، أي : حِراصٌ عليه، فلا يُنفقونَهُ، كما قالَ : ﴿ وإنَّهُ لِحُبِّ الخَيرِ لَشديدٌ ﴾ [العاديات:٨] .

□ ثمَّ قال تعالى : ﴿ يَحسَبونَ الأحزابَ لم يَذهَبوا وإن يأتِ الأحزابُ يَودُّوا لَو أنَّهُم بادُونَ في الأعرابِ يَسألونَ عن أنبائكُم وَلو كانوا فيكُم ما قاتَلوا إلاّ قليلاً ﴾ [الأحزاب: ٢٠] .

فوصفهم بثلاثةِ أوصافٍ :

أحدها : أنَّهم لِفَرْطِ خوفهم يحسبونَ الأحزابَ لم يَنصرِفوا عن البَلدِ، **وهذه حالُ الجَبانِ الذي في قلبهِ مَرَضٌ، فإنَّ قلبَهُ يُبادِرُ إلى تَصديقِ الخَبَرِ المُخَوِّفِ، وتَكذيبِ خبَرِ الأمنِ**[1].

الوَصف الثَّاني : أنَّ الأحزابَ إذا جاءوا تمنَّوا أن لا يكونوا بينكم، بل يكونونَ في الباديَةِ بينَ الأعرابِ، يسألونَ

= الصَّلاة » (٦٣٥)، والنسائي في « التَّفسير » (٦٠٣)، والدَّارمي (٢/٢٤٠)، وابن حبَّان (١٥٨٠) بسندٍ حسنٍ .

وفي الباب عدَّةُ أحاديث، فانظر التَّعليق على « كتاب التَّفسير » للإمام النَّسائي (٢/٤١١-٤١٢) .

(١) وهكذا مَن هو مثلُه ... فإنَّهُ يُبادرُ إلى تَصديقِ خبرِ الشَّيْن، وتَكذيب خبرِ الزَّين ... يُصدِّقُ خبرَ (التُّهمة) ... ويُكذِّبُ خبر (البراءة) !!!

عن أنبائكُم : أَيْش[1] خَبَرُ المدينةِ ؟ وأَيْش جَرى للنَّاس ؟

والوَصف الثَّالث : أنَّ الأحزابَ إذا أَتوا، وهم فيكم، لم يُقاتلوا إلاّ قليلاً .

وهذه الصِّفاتُ الثَّلاثُ منطبقَةٌ على كثيرٍ منَ النَّاسِ في هذه الغَزوةِ، **كما يعرفونَهُ من أنفسهم**، ويَعرفهُ منهم مَن خَبَرَهُم .

□ ثمَّ قال تعالى : ﴿ لَقَد كانَ لَكُم في رَسولِ اللَّهِ أُسوَةٌ حَسَنَةٌ لمَن كانَ يَرجوا اللَّهَ واليَومَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كثيراً ﴾ [الأحزاب: ٢١] .

فأخبَرَ سبحانهُ أنَّ الذينَ يُبتَلَونَ بالعَدوِّ، كما ابتُليَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، فلهم فيه أُسوَةٌ حَسَنَةٌ، حيثُ أصابهم مثلُ ما أصابهُ، فليَتأسَّوا به في التَّوكُّل والصَّبرِ، ولا يظنُّونَ أنَّ هذه نِقَمٌ لصاحبها، وإهانَةٌ له، فإنَّهُ لو كانَ كذلكَ ما ابتُليَ بها خيرُ الخلائق، **بل بها تُنالُ الدَّرجاتُ العاليَةُ، وبها يُكفِّرُ اللَّهُ الخطايا لمَن كانَ يَرجو اللَّهَ واليَومَ الآخِرَ وذَكَرَ اللَّهَ كثيراً**، وإلاّ فَقَد يُبتَلى بذلك مَن ليسَ كذلك، فيكون في حقِّه عذاباً، كالكُفَّارِ والمنافقين .

---

(١) كلمةٌ فصيحةٌ، بمعنى : أيُّ شيء ؟

□ ثمَّ قال تعالى : ﴿ ولمَّا رأى المؤمنونَ الأحزابَ قالوا هذا ما وَعَدنا اللَّهُ ورسولهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ ورَسولهُ وما زادَهُم إلاّ إيماناً وتَسليماً ﴾ [الأحزاب:٢٢] :

قال العلماء : كانَ اللَّهُ قَد أنزَلَ في سورَةِ البقرة : ﴿ أم حَسِبتُم أن تَدخُلوا الجنَّةَ ولمَّا يأتِكُم مَثَلُ الَّذينَ خَلَوا مِن قَبلِكُم مسَّتهُمُ البأساءُ والضَرَّاءُ وزُلزِلوا حتَّى يَقولَ الرَّسولُ والَّذينَ آمَنوا مَعَهُ متى نَصرُ اللَّه ألاَ إنَّ نَصرَ اللَّهِ قَريبٌ ﴾ [البقرة:٢١٤]، فبيَّنَ اللَّه سبحانه - مُنكِراً على مَن حَسِبَ خلافَ ذلك - أنَّهم لا يَدخلونَ الجنَّة إلاّ بَعدَ أن يُبتَلَوا مثلَ هذه الأمَم قبلهم ﴿ بالبأساءِ ﴾، وهي الحاجة والفاقة، و ﴿ الضرَّاء ﴾، وهي الوَجعُ والمَرَضُ، و ﴿ الزِّلزال ﴾، وهي زَلزلةُ العدوِّ .

فلمَّا جاءَ الأحزابُ عامَ الخَندَق فرأوهم، قالوا : ﴿ هذا ما وَعَدَنا اللَّهُ ورسولهُ وَصَدَقَ اللَّهُ ورَسولهُ ﴾، وعَلموا أنَّ اللَّه قَد ابتلاهُم بالزِّلزال، وأتاهم مَثَلُ الذين خَلَوا مِن قبلهم، ﴿ وما زَادَهُم إلاّ إيماناً وتَسليماً ﴾، لحُكمِ اللَّه وأمرِهِ .

وهذه حالُ أقوامٍ في هذه الغَزوة، قالوا ذلك .

□ وكذلكَ قوله تعالى : ﴿ مِنَ المُؤمنينَ رجالٌ صَدَقوا ما عاهَدوا اللَّهَ عليهِ فَمنهم مَن قَضى نَحبَهُ ﴾ [الأحزاب:٢٣]،

أي : عَهدَهُ الذي عاهَدَ اللَّهَ عليه، فقاتَلَ حتى قُتِلَ، أو عاش .

و (النَّحبُ) : النَّذرُ والعَهدُ – وأصلهُ منَ النَّحيب[1]، وهو الصَّوت، ومنه : الانتحابُ في البُكاء – وهو الصَّوتُ الذي تُكُلِّم بهِ في العَهد .

ثمَّ لمَّا كانَ النَّحبُ : نذرَ الصِّدقِ في جميعِ المواطنِ في اللقاء – ومَن صدقَ في اللقاء فَقَد يُقتَل – صارَ يُفهَمُ من قوله: ﴿ قَضى نَحبَهُ ﴾ أنَّهُ استُشهِدَ، لاسيَّما إذا كانَ النَّحبُ : نذرَ الصِّدقِ في جميعِ المواطن، فإنَّهُ لا يقضيه إلاّ بالموت، وقضاءُ النَّحبِ هو الوَفاءُ بالعَهدِ، كما قال : ﴿ مِنَ المؤمنينَ رجالٌ صَدَقوا ما عاهَدوا اللَّهَ عليهِ فَمِنهُم مَن قَضى نَحبَهُ ﴾ [الأحزاب:٢٣]، أي : أكمَلَ الوفاءَ، وذلك لِمَن كانَ عهدهُ مطلقاً : بالموتِ، أو القَتلِ .

□ ﴿ وَمِنهُم مَن يَنتَظِرُ ﴾ قضاءَهُ، إذا كانَ قَد وفَّى البَعضَ، فهو ينتَظِرُ تمامَ العَهدِ .

وأصلُ القضاءِ : الإتمامُ والإكمالُ .

□ ﴿ لِيَجزيَ اللَّهُ الصَّادقينَ بِصِدقهم ويُعذِّبَ المنافقينَ إن شاءَ أو يَتوبَ عَلَيهم وكانَ اللَّهُ غَفوراً رحيماً ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

---

(١) « القاموس المحيط » (١٧٤) .

بيّنَ اللَّهُ سبحانه أنَّهُ أتى بالأحزابِ ليَجزيَ الصَّادقينَ بصدقهم، حيثُ صَدَقوا في إيمانهم، كما قالَ تعالى : ﴿ إنَّما المؤمنونَ الَّذينَ آمَنوا باللَّهِ ورسولهِ ثمَّ لَم يَرتابوا وجاهَدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيلِ اللَّه أولئكَ هُمُ الصَّادقون ﴾ [الحجرات: ١٥] .

فحَصرَ الإيمانَ في المؤمنينَ المجاهدينَ، وأخبَرَ أنَّهم هم الصَّادقونَ في قولهم : آمَنَّا، لا مَن قال كما قالت الأعراب : ﴿ آمَنَّا ﴾ والإيمانُ لم يدخُل في قلوبهم، بل انقادوا واستَسلَموا .

وأمَّا المنافقونَ فهم بينَ أمرين : إمَّا أن يعذِّبهم، وإمَّا أن يتوبَ عليهم .

فهذا حالُ النَّاسِ في الخَندقِ وفي هذه الغَزوةِ .

وأيضاً : فإنَّ اللَّه تعالى ابتلى النَّاسَ بهذه الفتنَةِ، ليَجزي الصَّادقينَ بصدقهم - وهم الثَّابتونَ الصَّابرونَ - ليَنصروا اللَّهَ ورسوله، ويعذِّبَ المنافقينَ إن شاءَ أو يتوبَ عليهم .

ونحنُ نَرجو منَ اللَّهِ أن يتوبَ على خَلقٍ كثيرٍ من هؤلاء المذمومين، فإنَّ منهم مَن نَدِمَ، واللَّهُ سبحانهُ يقبَلُ التَّوبَةَ عن عبادهِ ويَعفو عَن السَّيِّئات، وقَد « فَتَحَ اللَّهُ للتَّوبَةِ باباً من قبلِ

المغرِبِ عَرضُهُ أربعونَ سنةً، لا يُغلقهُ حتّى تَطلُعَ الشمسُ مِن قِبَلِهِ »[1].

وَقَد ذكرَ أهلُ المغازي – منهم ابنُ اسحاق[2] – أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال في الخَندَق : « الآنَ نَغزوهُم، ولا يَغزونا » فما غزَت قريشٌ ولا غَطَفانُ، ولا اليهودُ المسلمينَ بعدَها، بل غزاهُم المسلمونَ، ففتَحوا خَيبرَ ثمَّ فتحوا مكّة .

كذلكَ، إن شاءَ اللّه، هؤلاء الأحزاب منَ المغُلِ وأصنافِ التُّركِ ومنَ الفُرسِ، والمستَعرِبَةِ، والنَّصارى، ونحوِهِم من أصنافِ الخارجينَ عن شريعَةِ الإسلام : **الآنَ نَغزوهم ولا يَغزونا**[2]، ويتوبُ اللّهُ على مَن شاءَ من المسلمين، الذين خالَطَ قلوبَهم مَرَضٌ أو نفاقٌ، بأن يُنيبوا إلى ربِّهم وَيَحسُنَ ظَنُّهُم في الإسلام، وتَقوى عَزيمتُهم على جهادِ عدوِّهم .

□ فَقَد أراهم اللّهُ منَ الآياتِ ما فيهِ عِبرَةٌ لأولي الأبصار، كما قال : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى

(١) بل رواهُ البخاري (٤١٠٩) عن سُليمان بن صُرَد رضيَ اللّهُ عنهُ .

(٢) **آهٍ على العزّة الضائعة للإسلام ...**
آهٍ على استعلاءِ المؤمنِ بإيمانِهِ ...
آهٍ على ذُلِّ الكُفّارِ وخُضوعِهِم ...
ولا حولَ ولا قوّةَ إلّا باللّهِ !!

اللَّهُ المؤمنينَ القِتالَ وكانَ اللَّهُ قويّاً عزيزاً ﴾ [الأحزاب: ٢٥] .

فإنَّ اللَّهَ صرَفَ الأحزابَ عامَ الخَندَقِ بما أرسلَ عليهم من ريحِ الصَّبا[1]: ريحٍ شديدةٍ باردةٍ - **وبما فرَّقَ به بينَ قلوبهم، حتى شتَّتَ شملَهم**[2] - ولم ينالوا خيراً، إذ كانَ همُّهُم فتحَ المدينةِ والاستيلاءَ على الرَّسولِ والصَّحابة، كما كانَ همُّ هذا العدوِّ فتحَ بلادِ الشام والاستيلاءَ على مَن بها من المؤمنينَ، فردَّهم اللَّهُ بغَيظِهم، حيثُ أصابهم منَ الثَّلجِ العظيمِ، والبَردِ الشديدِ، والرِّيحِ العاصفِ، والجوعِ المزعجِ، ما اللَّهُ به عليمٌ .

وَقَد كانَ بعضُ النَّاسِ يكرهُ تلكَ الثُّلوجَ والأمطارَ العظيمَةَ التي وقعَت في هذا العام، حتى طلبوا الاستصحاءَ غيرَ مرَّةٍ، وكُنَّا نقولُ لهم : هذا فيهِ خِيرَةٌ عظيمَةٌ، وفيه للَّهِ حكمَةٌ وسِرٌّ فلا تَكرهوهُ، فكانَ مِن حِكمَتهِ : أَنَّهُ - فيما قيلَ - أصابَ قازانَ وجنودَه، حتى أهلكهم، وهو كانَ - فيما قيل - سبَبَ رحيلهم، وابتُليَ بهِ المسلمونَ؛ **ليتبيَّنَ مَن يَصبِرُ على أمرِ اللَّهِ وحُكمهِ ممَّن يفرُّ عن طاعتهِ وجهادِ عدوِّهِ** .

---

(١) كما رواهُ البخاري (٤١٠٥)، ومسلم (٩٠٠) عن ابن عبّاس .

(٢) واليومَ : العكسُ ... فقلوبُ المسلمين مُفرَّقةٌ ... وشملُهم مُشتَّتٌ ... إلاّ مَن رَحِمَ اللَّهُ، وأقلُّ مِن القليلِ هم !

وكانَ مَبدَأُ رحيلِ قازانَ فيمَن معهُ مِن أرضِ الشأمِ وأراضي حَلَب : يومَ الاثنين، حادي عَشر جمادى الأولى، يومَ دخَلتُ مصرَ عقيبَ العَسكرِ، واجتَمَعتُ بالسُّلطان وأُمراءِ المسلمينَ، وألقى اللّهُ في قلوبهم مِنَ الاهتمام بالجهادِ ما ألقاهُ، فلمَّا ثَبَّتَ اللّهُ قلوبَ المسلمين صرَفَ العدوَّ، جزاءً منه، وبياناً **أنَّ النيَّةَ الخالصةَ والهمَّةَ الصَّادقَةَ ينصرُ اللّهُ بها، وإن لم يقع الفعلُ، وإن تباعَدَت الدِّيار** .

وذكرَ أنَّ اللّه فرَّقَ قلوبَ هؤلاءِ المُغلِ والكُرجِ[1] وألقى بينهم تباغُضاً وتعادياً، كما ألقى سبحانهُ عامَ الأحزابِ بينَ قريش وغَطَفان، وبينَ اليهودِ، كما ذكرَ ذلكَ أهلُ المغازي، فإنَّهُ لم يتَّسع هذا المكان لأنْ نَصِفُ فيهِ قصَّةَ الخَندَق، بل مَن طالعها علِمَ صحَّةَ ذلك، كما ذكرهُ أهلُ المغازي، مثلُ : عُروَةَ بن الزُّبَير، والزُّهريِّ، وموسى بن عُقبَة، وسَعيدِ بن يَحيى الأُمَوي، ومحمَّد بن عائذٍ[2]، ومحمَّد بن إسحاقَ، وَالواقِدي، وغيرهم .

(١) قال ياقوتُ الحَمَويُّ في « معجم البلدان » (٤/٢٥١) :

« الكُرجُ : جيلٌ مِن النَّاسِ نصارى، كانوا يسكنونَ في جبالِ القَبْق، وبَلَد السَّرير، فقويت شوكتهم، حتى مَلكوا مدينة تَفْليس، ولهم ولايةٌ تُنسَبُ إليهم، ولغَةٌ برَأسِها، وشوكةٌ وقوَّةٌ، وكثرةُ عددٍ » .

(٢) توفِّيَ سنة (٢٣٢هـ)، مُتَرجَم في « تاريخ بغداد » (٣/١٤٠) . =

ثمَّ تبقَّى بالشأمِ منهم بقايا، سارَ إليهم من عسكرِ دِمَشق أكثرُهم، مضافاً إلى عَسكرِ حماةَ وحَلَب، ما هنالك، وثبتَ المسلمونَ بإزائهم، وكانوا أكثَرَ منَ المسلمين بكثيرٍ؛ لكن في ضَعفٍ شديدٍ، وتقرَّبوا إلى حماةَ وأذلَّهُم اللَّه تعالى، فلم يُقدِموا على المسلمين قطُّ، وصارَ مِن المسلمين مَن يريدُ الإقدامَ عليهم، فلم يوافقهُ غيرُهُ، فَجَرَت مُناوَشاتٌ صِغارٌ، كما قَد كانَ يجري في غَزوةِ الخَندَق، حيثُ قَتَلَ عليٌّ بن أبي طالب رضيَ اللَّهُ عنهُ فيها عَمْرو بنَ عَبدِ ودٍّ العامريَّ لمَّا اقتَحَمَ الخَندَق، هو ونفَرٌ قليلٌ من المشركين[1].

= وقَد أشارَ الذَّهبي في « السِّيَر »(١١/١٠٦) إلى كتابهِ « المغازي » قائلاً: « جَمَعَ كتاب « المغازي »؛ سمعتُ مُعظمَهُ ... » .

قلتُ : ولا أعلمُ عن وجودِ هذا الكتاب شيئاً، واللَّهُ أعلم .

(١) انظر : « البداية والنهاية » (١٠٥/٤-١٠٧) لابن كثير، و « تاريخ الإسلام » (٢٩٠/٢) للذَّهبي، و « تاريخ الطَّبري » (٥٧٣/٢)، و « مغازي الواقدي » (٤٧٠/٢)، و « طبقات ابن سعد » (٦٨/٢)، و « سيرة ابن هشام » (٣١٣/٣)، و « دلائل النُّبوَّة » (٤٣٧/٣) للبيهقي .

وقال شيخنا الألباني في طبعتهِ الجديدة من كتابهِ « سلسلة الأحاديث الضَّعيفة » (٤٠٠) :

« وقصَّةُ مبارزةِ عليّ رضيَ اللَّهُ عنهُ لعَمرو بن وُدّ وقَتلهِ إيَّاه مشهورةٌ في كُتبِ السِّيرةِ، وإنْ كنتُ لا أعرِفُ لها طريقاً مسنداً صحيحاً، وإنَّما هي من =

كذلكَ صارَ يتقرَّبُ بعضُ العَدوِّ فيكسرُهم المسلمون، مع كونِ العَدوِّ المتقرِّب أضعافَ مَن قَد سَرى إليهِ منَ المسلمين، **وما مِن مرَّةٍ إلاّ وقَد كانَ المسلمونَ مستَظهرينَ عليهم**، وساقَ المسلمونَ خَلفهم في آخِرِ النَّوباتِ، فلم يُدرِكوهم إلاّ عندَ عُبورِ الفُراتِ، وبعضُهم في جزيرةٍ فيها، فرأوا أوائلَ المسلمين فهَربوا منهم، وخالطوهم، وأصابَ المسلمونَ بعضَهم، وقيلَ : إنَّه غَرِقَ بعضهم .

وكانَ عبورُهم وخلوُّ الشأمِ منهم في أوائلِ رجبٍ، بعدَ أن جَرى - ما بينَ عبورِ قازان أوَّلاً وهذا العبورِ - رجَفاتٌ ووَقعاتٌ صغارٌ، وعَزَمنا على الذَّهابِ إلى حماة غيرَ مرَّةٍ، لأجلِ الغزاة، لمَّا بلغنا أنَّ المسلمينَ يريدونَ غَزوَ الذين بقوا، وثبتَ بإزائهم المقدَّم الذي بحماة، ومَن معهم من العَسكر، ومَن أتاهُ مِن دِمَشق، وعَزموا على لقائهم، ونالوا أجراً عظيماً، وقَد قيلَ : إنَّهم كانوا عدَّةَ لحاناتٍ[1]، إمَّا ثلاثةً، أو أربعَةً .

وكانَ مِنَ المقدَّرِ : أنَّهُ إذا عَزَمَ الأمرُ وصَدَقَ المؤمنونَ اللّهَ

= المراسيل والمعاضيل » .

(١) كذا في « العقود »، وفي « مجموع الفتاوى » : « كمانات » ! ولم يتبيَّن لي الصَّوابُ منها، والظَّاهرُ مِن السِّياق - والله أعلم - =

يُلقي في قلوبِ عَدوِّهم الرُّعبَ فيَهربونَ، لكن أصابوا منَ البُلَيدات[1] بالشمالِ مثلَ « تيزين »، و « الفوعة »، و « مَعَرَّة مَصْرين »، وغيرها ما لَم يكونوا وَطِئوهُ في العامِ الماضي .

وقيلَ : إنَّ كثيراً من تلكَ البلادِ كان فيهم مَيلٌ إليهم، بسَببِ الرَّفضِ، وأنَّ عندَ بعضهم فرَامين[2] منهم، لكنَّ هؤلاءِ ظلمةٌ، ومَن أعانَ ظالماً بُلي به[3]، واللّه تعالى يقول : ﴿ وَكذلكَ نُوَلِّي بعضَ الظَّالمينَ بعضاً بِما كانوا يَكسِبون ﴾ [الأنعام: ١٢٩] .

وَقَد ظاهَرَهُم على المسلمين : الذين كَفروا من أهلِ

= أنَّ المعنى المُراد : الفِرَقُ، أو المجموعات، أو نحو ذلك .

(١) وكُلُّها مِن قُرى حَلَب .

(٢) لعلَّ المُراد : مُعاونونَ، ومُساعِدون .

(٣) قولُه : « ومن أعانَ ظالماً بُلِيَ به »، أصلهُ حديثٌ مَشهورٌ على الألسنة، ولا تُعرَف له صحَّةٌ، فانظر « كشف الخفاء » (٢٢٧/١) .

نعم؛ لم يَنسِبهُ المصنِّف - رحمهُ اللّه - حديثاً، وهذا من كمالِ دقَّتهِ، وعظيمِ تثبُّتهِ .

وقد كتبَ أخونا الشيخ عبدالرَّحمن الفَرِيْوائي أُطروحتَهُ في الدُّكتوراة في منهج ابن تيميَّة الحديثي، فجزاهُ اللّهُ خيراً .

الكتابِ[1]، من أهلِ « سيس »[2] والإفرنج، فنحنُ نَرجو مِنَ اللَّهِ أن يُنزلهم من صياصيهم – وهي الحصون، ويقال للقرون: الصَّياصي –، ويَقذِفَ في قلوبهم الرُّعبَ .

وَقَد فَتَحَ اللَّهُ تلكَ البلادَ ونَغزوهم إن شاءَ اللَّه تعالى، فيفتح أرضَ العراق وغيرها، **وتعلو كلمَةُ اللَّهِ ويَظهَرُ دينُهُ** .

فإنَّ هذه الحادثَة كان فيها أمورٌ عظيمةٌ جازَت حدَّ القياسِ، وخَرَجَت عن سُنَنِ العادَةِ، وظَهَرَ لكلِّ ذي عَقلٍ من تأييدِ اللَّهِ لهذا الدِّين، وعنايتهِ بهذه الأمَّة، وحفظهِ للأرضِ التي باركَ فيها للعالمين بعدَ أن كادَ الإسلامُ أن [يَضعُفَ]، وكرَّ العدوُّ الكرَّةَ فلم يَلوِ عن [رَجعَةٍ]، وخُذِلَ النَّاصرونَ فلم يلووا على [شيء]، وتحيَّرَ السَّائرونَ فلم يَدروا مِن [أينَ جاؤوا]، ولا إلى [أينَ يَذهبون][3] .

---

(1) وهكذا ... ﴿ بَعضُهُم أولياءُ بَعضٍ ﴾ ! فملَّةُ الكُفرِ واحدةٌ .

أفلا يتفكَّر بذلك أولئكَ المادُّون أيديَهم إليهم، والذين يُسمُّونهم – اليومَ – (الدُّول الصَّديقة) ؟!

(2) وتُسمَّى (سيسيَّة)، وهي مدينة بين أنطاكية وطَرَسوس، وهم من الطَّوائف النَّصرانيَّة الأرمنيَّة .

انظر : « معجم البلدان » (٣/٢٩٧-٢٩٨) .

(3) جميع ما بين المعكوفين ساقطٌ مِن النُّسختين، وقَد قدَّرتهُ تقديراً، =

وانقَطَعَت الأسبابُ الظَّاهرة، وأُهطِعَت الأحزابُ القاهِرَة، وانصَرَفَت الفئةُ النَّاصِرَة، وتخاذَلَت القلوبُ المُتناصِرَة، وثَبَتَت الفئةُ النَّاصِرَة، وأيقَنَت بالنَّصرِ القلوبُ الطَّاهِرَة، واستنجزَت مِنَ اللَّهِ وَعدَهُ **العصابَةُ المنصورَةُ الظَّاهرَة**[1]، ففتَحَ اللَّهُ أبوابَ سماواتِهِ لجنودِهِ القاهِرَة، وأظهَرَ على الحقِّ آياتِهِ الباهِرَة، وأقامَ عمودَ الكتابِ بعدَ ميلِه، وثبَّتَ لواءَ الدِّين بقوَّتِهِ وحَوْلِهِ، وأرغَمَ معاطِسَ[2] أهلِ الكفرِ والنِّفاق، وجَعَلَ ذلكَ آيَةً للمؤمنينَ إلى يومِ التَّلاقِ .

فاللَّهُ يُتمُّ هذه النِّعمَة بجمعِ قلوبِ أهلِ الإيمانِ على جهادِ أهلِ الطُّغيانِ، ويجعَلُ هذه المِنَّةَ الجسيمَة مبدأً لكلِّ منحةٍ كريمة، وأساساً لإقامَةِ الدَّعوَةِ النَّبويَّة القويمَة، ويَشفي صدورَ

= ولعلَّهُ – إن شاء اللَّهُ – قريبٌ مِن الصَّواب .

(١) فالطَّائفَةُ المنصورةُ – بإذنِ ربِّها – مَنصورةٌ ... فكما نُصِرَت في عَصرِ نبيِّ الإسلام – عليهِ الصَّلاة والسَّلام – ... ورُفِعَت رايَتُها في عَهدِ ابنِ تيميَّةَ الإمام ... فستأخُذُ مَوقِعَها، وستَرجِعُ إليها مكانَتُها في هذه الأزمانِ والأيَّام .

وَلا يَغُرَّنَّكم أيُّها المؤمنون فُشُوُّ الباطلِ، وعِزُّ أهلِهِ، وانتشارُ رقعتِه ... فهو إلى زوالٍ، وإن كانَ لهذا الباطلِ دولةٌ ... فللحقِّ دُوَلٌ ... وَلو بَعدَ حينٍ .

﴿ إنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَومٍ حتَّى يُغَيِّروا ما بأنفُسِهِم ﴾، واللَّهُ المستعان .

(٢) مفردها : مَعْطِس؛ وهو الأنفُ .

المؤمنينَ مِن أعاديهم، ويُمكِّنُهم مِن دانيهم وقاصيهم[1].

والحَمدُ للّهِ ربِّ العالمين، وصلَّى اللّهُ على سيِّدنا محمَّد وآلهِ وصحبهِ وسلِّم تَسليماً.

○○○○○

---

(١) وبهذا الدُّعاءِ القلبيِّ الخالص - ولا نُزكِّي على اللّهِ أحداً - خُتِمَ التَّعليقُ على هذه الرِّسالة النَّافعة المباركة، سائلاً اللّهَ عزَّ وجلَّ أن تكونَ هذ ومثيلاتُها «**أساساً لإقامةِ الدَّعوةِ النَّبويَّةِ القويمة**» إنَّهُ سميعٌ مجيبٌ.

وكتبهُ

أبو الحارث الحلبيُّ الأثريُّ

عفا اللّه عنه بمنّه

صبيحة يوم السبت لسبعٍ بقين

من شهر صفَر، سنة ١٤١٣هـ



فِهرِسُ الكتاب

○○○○○